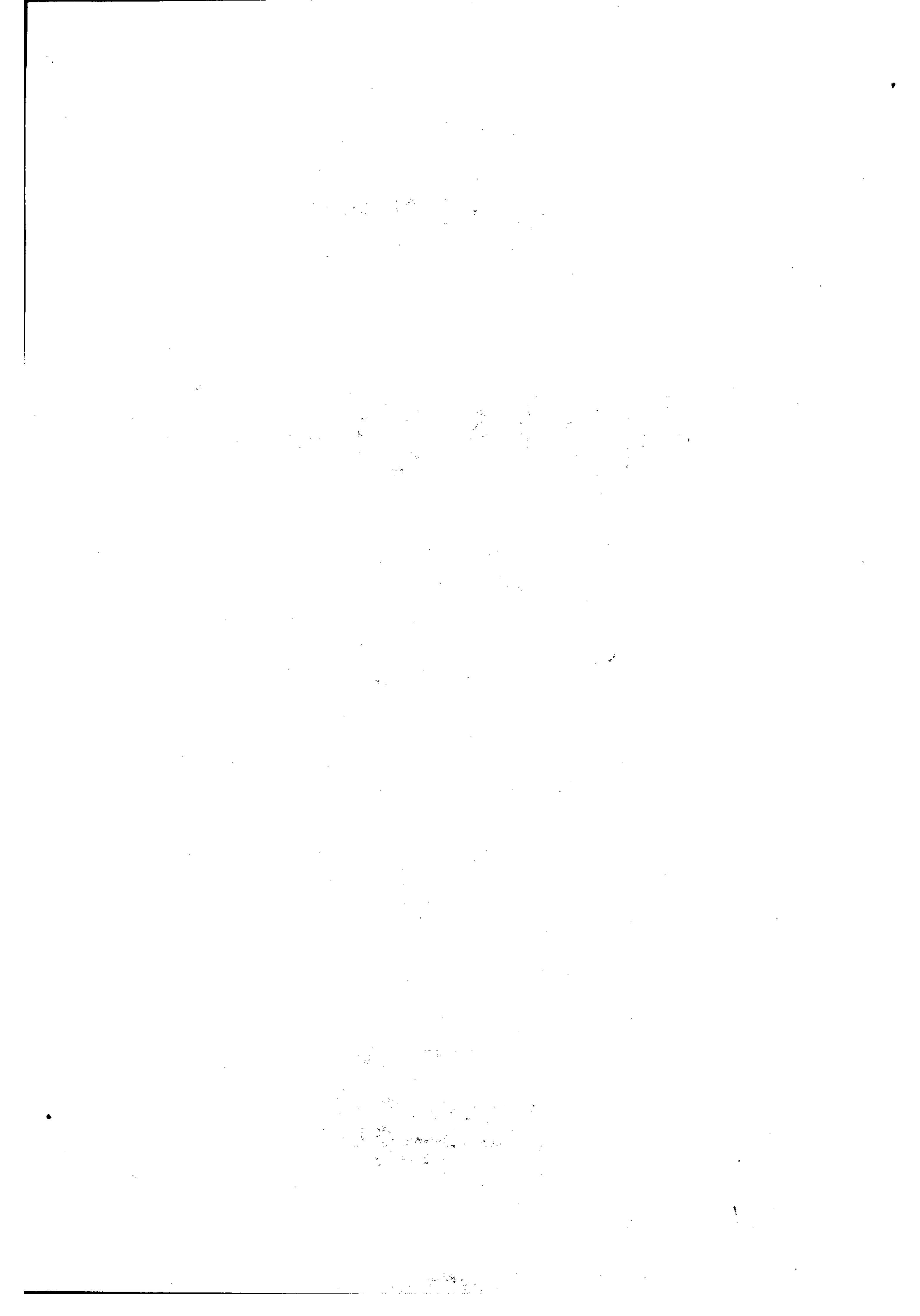
طـــه وادى

أشجان مدريد

٢٠٠٢

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠



إهـــداء

الجميلة الجليلة

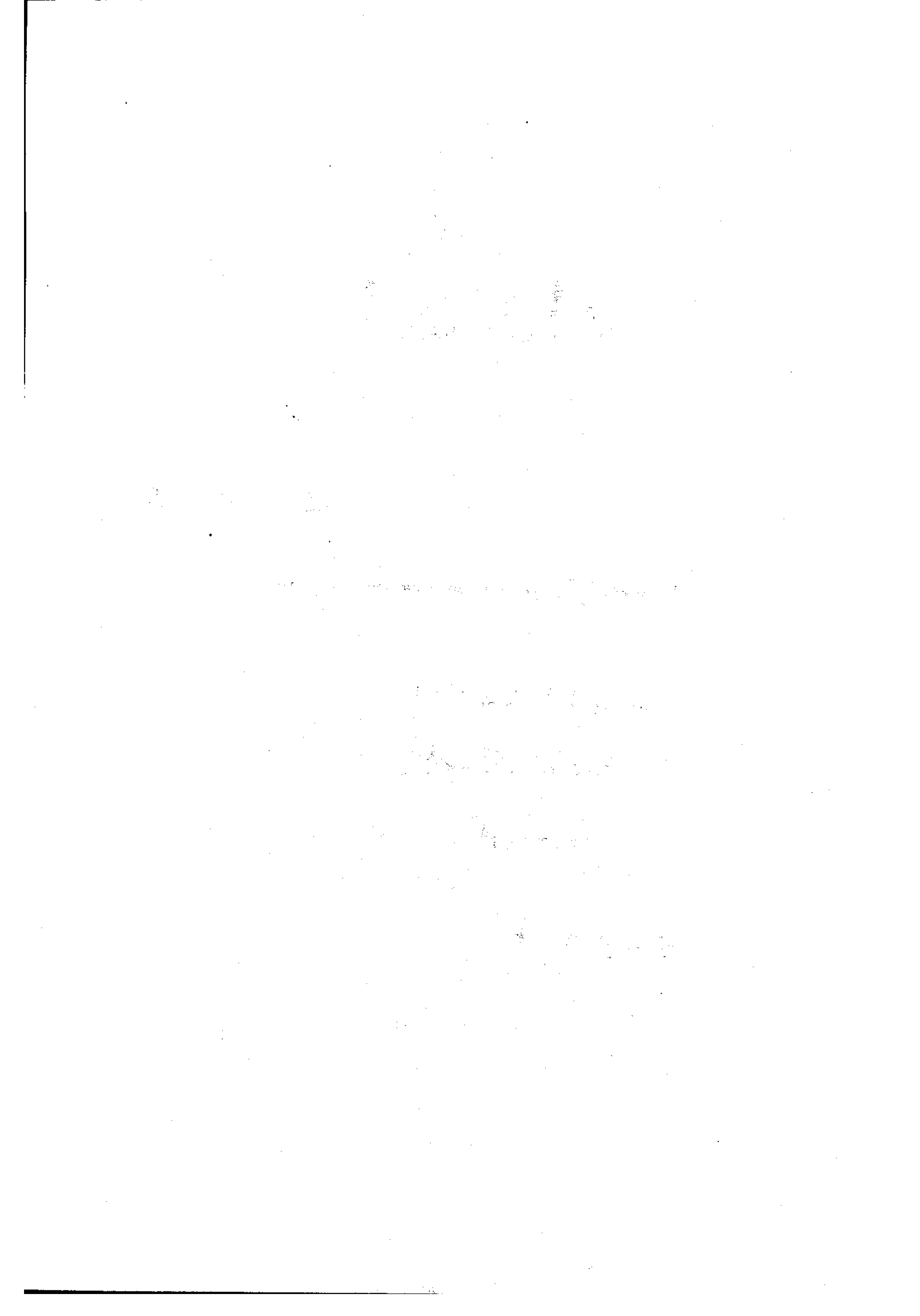
ماريًّا خُــوسِــيسْ بِيجــيرَا

والصديقات العزيزات

والأصدقاء المخلصين

فى مدريد

طـــه وادى



١ - أن تصل متأخرًا ..!!

رويدا... رويدا.. تهبط الطائرة المصرية مطار مدريد . أخذتُ نفسا عميقا. أتحسس حزام الأمان. الجوّ صحو. الشمس مشرقة. عصر اليوم الثانى من فبراير ٢٠٠٢. هاجس عجيب. يشدّنى نحو المجهول. أول مرة تهبط قدماى أرض أوربا. أربعة وأربعون عاما... وأنا – أنا **كارم عبد الرحمن قنديل** – مربوط بأرض الوطن بحبل سرى. كلما ضعف قويته. كلما نسينى تذكرته..! التطور السريع للتكنولوجيا، يؤدى إلى تغيّر المزاج الفنى. يجب إعادة النظر فى القيم الاجتماعية والفكرية، حتى لا نعيش خارج القرية الكونية. أميل إلى التعبيرية والتلقائية فى الفن – دون استلهام فلسفة مدرسة بعينها.

أحاول أن أتمرّد على كثير مما كنت أومن به. ربما تأتى الرياح بما يشتهى الملاح..!!

طفلٌ أنا .. شاعرُ الألوان
مصابٌ أنا .. بلوثة الفن وبراءة الفنان
الفن / الخلق / الشوق / العشق
لوحة .. لم تُستكمل
لم تكف عن الدوران
أبحث عن طريق
يريح فى ضمير الإنسان .. !!

أحسستُ – وأنا أغادر الطائرة حاملاً معطفى وحقيبة يدى – أن عظامى مفككة. أكثر من شهر. كنت أرتّب أمورى من أجل هذه الرحلة. جريت سريعا مثل الآخرين نحو شبابيك الجوازات. اخترتُ واحدًا. لا يقف عنده كثيرون. ردت الموظفة الشقراء النحيلة : ليس هنا . أشارتْ بيدها الرقيقة. قرأت لوحة مضيئة بالنيون الأخضر : "للمواطنين والأوربيين". تذكرتُ. وجدتُ مثل هذه التفرقة فى المرات القليلة، التى سافرت فيها إلى بلاد الخليج. الغريب .. غريب.. حتى لو.... !!

زالتْ بعضُ هواجس القلق ومشاعر الغربة . وجدت صديقى العزيز – **طارق منصور** . أدرك جيدًا مدى ما بيْننا من صداقة ومودة. لكنى أعرف أنه رجل أعمال. مشغول دائماً. هتفتُ من فرحتى بصوت عالٍ. مثل الصعيدى، الذى وجد قريبه فى محطة قطار القاهرة : طارق.. طارق.

أغلق التليفون المحمول الذى يتكلم فيه . توجه نحو مصدر الصوت. جرى كل منّا ناحية الآخر. تعانقنا بحرارة وشوق. لا أدرى لم بكيت.. ؟ ! فى مواقف كثيرة تغلبنى الدموع، كأنى واحد من شخصيات كتاب "العبرات" للمنفلوطى.

لم يعلق طارق على ما حدث. فتماسكت سريعا.

– حمدًا لله على سلامتك.

– سعيد برؤيتك . أرجو أن تكون أحوالك على ما يرام.

– سوف نتحدث كثيراً.. فيما بعد .. هيا.. !!

سحب عربة الحقائب من يدى. أتخفف من معطف المطر. أشار

بيده اليسرى مناديا : **بيــلار لوبــز.**

بيلار امرأة رشيقة أنيقة. في حوالى الثلاثين أوْ أقلّ قليلا. تلبس تايير سيموني اللون. شعرها قصير. يبرز جمال الرقبة والقفا. وجه طبيعي مشرق.. بغير مكياج. تصافحنا . بابتسامة خفيفة:

- زوجتك ؟

- تفكر في أوربا بعقلية رجل ريفيّ . انس.. انس.. هيا.

ركبنا السيارة نحن الثلاثة : طارق يسوق . أنا بجواره. بيلار خلفه. مضت السيارة سريعة نحو شوارع مدريد. مدريد اسمها يعني مجرى الماء . اليوم – بالنسبة لي – هي مجرى الحياة. أن تصل متأخرا، خير من ألا تأتي بالمرة.

سامحيني يا أمي الحبيبة
لم تكوني راضية عن هذه الرحلة
حبّي لك .. لا حدود له
لكني أحاول .. أحاول
أن أكتشف نفسي
بالفن .. مع الفن .. من أجل الفن
بين اللون .. وانعدام اللون
بين الصمت .. والصخب
بين هنا .. وهناك
بين الرأي .. والرأي الآخر
بين المحلية .. والعالمية

بيـــن شـــقى الرحـــى :
أدور فى جولاتٍ مكوكية
بحثا عن ذاتى
عـــن الفـــن
عن أهل بلدى الطيّبين
عن البشر المخلصين
فى كل مكان.
مدريد .. يا مجرى الحياة
ضمينى إليك
عالجى جروحى
فقد جئتُ إليك
بعد سفرٍ طويل . !!

الأضواء الملونة . تكسو شوارع المدينة حلةً زاهية مثل أيـــام الكرنفال. الشوارع مزدحمة .. بالسيارات والناس . لاحظ طـــارق أننى أتأمل مندهشا حالة الزحام.

- اليوم السبت (Sábado) عطلة للجميع. الأوربيون يقضون معظم حياتهم فى العمل، والشوارع، والمطاعم، والبارات، وصالات الديسكو. البيوت للنوم فقط يا صديقى.

طارق يمضى بالسيارة مسرعا. يحترم إشارات المـــرور بكـــل دقة. لا حظت أيضا أن المشاة ملتزمون كذلك. النظـــام لا يجعلـــك تحسّ الزحام. تمنيت أن أجد مثل هذا .. فى بلادى الجميلة.

- حجزت لى غرفة فى فندق قريب من بيتك ؟
- ينبغى أن تشكر بيلار. أعدت لك شقة قريبة من مكتبى.

خشيت أن أسأل طارق : بيلار سيدة أم آنسة ؟ وما علاقته بها؟ ما زلت أفكر بطريقة شرقية. لا ينبغى أن أهتم بالشكل. المضمون فقط.

- شكرا يا عزيزتى بيلار.

أخبرنى طارق أن بعض العملاء يغادرون مدريد، لفترات محدودة من أجل العمل أو السياحة. ويتركون مفاتيح شققهم عنده، ليؤجرها إلى ساكن محترم، يحافظ على ما فيها.. خاصة اللوحات الزيتية والتماثيل الرخامية. توقفت السيارة. المنزل رقم 5 شارع أندريز ميادو (Calle Andres Mellado) – منطقة أرجويز (Argülles).

- لم أحضرت كل هذه الحقائب ؟ قال طارق وهو يفتح حقيبة سيارته البيضاء.
- يمكن أن يساعدنا البواب ؟

أجابت بيلار فى رقة : البواب موظف . لا يساعد أحدا. فقط يحرس البيت. كما أن اليوم عطلة.

حملت حقيبة .. وطارق أخرى.. وبيلار حقيبة اليد، وحقيبة أخرى. عرفت فيما بعد أن بها بعض الأشياء الضرورية : لبن حليب – خبز – بسكويت – زجاجة ماء – بعض حبات من البرتقال والتفاح والليمون – شاى – سكر – كبريت – علبة جبن – مربى .

وضعت بيلار معظم الأشياء فى الثلاجة . أعدت السكرتيرة الحسناء ثلاثة أكواب من الشاى . وأحضرت بعض البسكويت.

- Gracias .. شكرا بيلار.

ردت وهى تذيب السكر: De Nada .. عفوا.

لم أستطع أن أتبين معالم الشقة من شدة تعبى. لن أعيش هنا طويلا. مجرد ثلاثة أشهر. مصادفة جميلة أن تجد شقة فى مدريد العاصمة . وليس فى الضواحى الجديدة، التى لا يربطها بمدريد القديمة رباط قوى.

أتأمل صديقى جالسا على كرسى الفوتيه المقابل. تغير شكل طارق ومضمونه. ازداد جسمه نحولا. لم يتجاوز السابعة والأربعين. عندما كنا نذهب - ونحن صغار - إلى رحلة، أو نتنزه، أو نقوم بأى عمل مشترك، يقول جادا:

- أنا أكبر منك بثلاث سنوات.. ليس لك أخ، أنا أخوك الكبير.

لم تستطع خمس وعشرون سنة أن تغير ملامح وجهه. قمحى اللون مثل نبات الحنطة، الذى تجود به أرض بلاده. عيناه سوداوان. حاجباه بهما شعر كثيف. رأسه بدأ الصلع والشيب يشتعلان فيها برفق. حلق الشارب - الذى كان يفتخر به فى مرحلة الصبا والشباب . كان ينوى أن يجعل شاربه مصقولا مفتولا مثل مصطفى كامل. وهو يردد قوله: " لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة ."

جمعت بيننا فترة صمت.. لا أدرى مداها. كأننا غرباء فى

قطار. أنقل عينى المتعبتين بين طارق وبيلار . امرأة رقيقة ذكية بسيطة . هذا مكمن سحر المرأة الأوربية. احترق الصمت حين أشعل طارق سيجارة.

– الساعة الثامنة .. صديقك ينبغى أن يتناول عشاء فاخرا، حتى ينسى تعب الرحلة يا سنيور.

أطفأ السيجارة : معك حق يا سنيوريتا.

لم أستطع أن أغير ملابسى. نظرت إلى وجهى فى مرآة الحمام. أمشط شعرى الأسود. العينان شبه محمرتين . الوجه القمحى ، بدا عليه الإرهاق والتعب. الجسد شبه النحيل، يحاول أن يشد عموده الفقرى. قبل أن أخرج كان على أن أشد السيفون.

ركبنا السيارة. الجو تغير. صار أقرب إلى برودة فبراير. علق طارق :

– فى اليوم الواحد ، يمكن أن ترى الفصول الأربعة.

مضت السيارة بطيئة بسبب عطلة السبت. كأنما خرج الناس جميعا إلى الشوارع. الناس يبحثون عن وسيلة للاستمتاع بعطلة نهاية الأسبوع . زحام .. زحام.. فى الشوارع.. فى المحلات.

اقتربت السيارة من أحد المحلات . دخلنا مطعما. يديره بعض الشبان السوريين. اعترضنا شاب أشقر . رفع يده معترضا:

– لا نبدأ العمل قبل العاشرة.

رد طارق : أنا زبون قديم . معى ضيف . وصل اليوم من القاهرة.

رد مبتسما : تكرم عينى.. اتفضلوا من أجل الزلمة المصـــرى. لكن لا عشاء إلا فى الموعد.

طلب طارق زجاجة من النبيذ الأحمر : كيف حـــال السـيدة أم كارم؟

- أمى بخير. تسلم عليك. لولا أنها تعرف أننى سوف أكـون معك ما وافقت.

أشعل سيجارة . تناول رشفة من النبيـــذ : أرجــو أن تســتمتع بوقتك هنا.

قالت بيلار : الإنسان يجب أن يستمتع بوقته فى أى مكـــان. إذا لم تكن تعمل ما تحب .. فأحب ما تعمل.

هذه المرأة - التى لا أدرى حتى الآن هل هى عذراء أم سـيدة. لم أزل أفكر بطريقة شرقية - تصمت طويلا. ثم تقول رأيا حكيمـــا بطريقة بسيطة مثل لوحات الفن البدائى.

طارق يحدثنى عن الأزمة الاقتصادية، التى تهدد العالم كله بعـد أحداث سبتمبر ٢٠٠١.. وسقوط برجى واشنطن ونيويـــورك. دول العالم الثالث عربية.. وغير عربية، سوف تضرب بشكل متوحـش.. وفى أوقات غير متوقعة.

- لماذا ؟ قلت وأنا أملأ كأس بيلار.

- لأنها تحمى الإرهاب كما يدعون. أو من أجـــل الحفـــاظ على موارد المواد الخام. أو الدخول تحت سيطرة النفوذ الأمريكـى. أمريكا تريد أن تكون السيد الوحيد للعالم.

بدأ زبائن المطعم يتوافدون. لا أحد يأتي وحده. على الأقل واحد وواحدة. جلس على المائدة المجاورة حوالى خمس نســاء . فاتــهن القطار – أوه.. مازلت أفكر بطريقــة شــرقية . كلــهن تجــاوزن الخمسين. خلعن المعاطف والجاكتات. رشيقات متجمــلات. ليــس بمقدور المرء أن يكون جميلا. لكن ينبغى عليه أن يتجمل. بدأن فــى التدخين، والشرب، والثرثرة، مثل كل نساء العالم.

بدأ صوت الموسيقى يعلو. أخبرنا النادل السورى – وهو يقــدم أطباق التبولة – أن هناك راقصة شرقية. سوف تمتع الزبائن بعــد منتصف الليل.

سألته مندهشا : من أى بلاد الشرق ؟

رد بسخرية : من كوبا يا ابن عمى .. مبسوط يا زلمة؟!

لم يحاول النادل أن يؤثرنا بشىء باعتبارنا عربا مثلــه. لفــت انتباهى رؤية بعض الشبان. يتبادلون العشق وقوفا وجلوسا. ليــس من حقك أن تنظر وترى ماذا يفعل أى عاشق بمعشوقته. كل إنســان من حقه أن يفعل أى شىء. المهم ألا تكون هناك مشــكلة. لاحــظ طارق أننى أتأمل مشاهد العشق فى حياء. قال ضاحكا :

– الحرية .. حرية فى الحب.. فى العمل .. فى السياسة . لا كبت.. لا قيود على أى مجال من مجالات الحياة.

– الكبت. يولد كل أنواع العقد .. يا صديقى.

أنا شاب لكن عمرى ولا ألف عام

وحيد ولكن بين ضلوعى زحام

خايف ولكن خُوفى إن أنــا أخرسْ

أخــرس ولكــن قلبى مليــان كلام

فى طريق العودة تداخلتْ – فى عينىّ – الأضـــواء والألـــوان والبشر والسيارات. انتصف ليل مدريد . الزحـــام لا يــزال يمـــلأ الشوارع والمحلات . لم أعد أعرف ماذا أريد . لم أقدمت على هــذه الرحلة الغريبة ؟! أمى.. أرجو ألا يكون قلبك غاضبًا علىّ .!!

وصلنا . قال طارق : تستطيع أن تفتح باب الشقة ؟

أجبته ساخرا : لا أعرف أين الشقة، فهل تظن أننى أعرف أين أضع المفتاح.؟!

٢ ـ أبتعد عنك .. لأذوب فيك

صباح اليوم التالى . لا أدرى متى استيقظت . أحسست راحة الجنين، حين يخرج من رحم ضيق إلى عالم فسيح. ذهبت إلى الحمام، لأغسل تعب أربع وأربعين سنة. حلقت ذقنى. بحثت فى حقائبى عن زجاجة الكولونيا الباريسية. اشترتها أمى. سيدة فاضلة . لا أجد فى النساء مثلها، فلم أتزوج حتى اليوم ..!

الفن.. الشعلة المقدسة . حجب عنى رؤية كثير من متع الحياة . تخليت عن الرؤية الحياتية. عشت رؤيا خيالية مع الفن.. وللفن . أومن أن الفن رسالة. أصحاب الرسالات، يجب أن يضحوا من أجلها.. من أجل الجمال والخير والحب، وكل ما هو جميل فى هذه الحياة. لو أدرك البشر معنى الجمال، لعرفوا أنه لا تعارض بين الجميل والمفيد . كن جميلا ، تر الوجود جميلا. !!

رن جرس التليفون المحمول – الذى تركه لى طارق: صباح الخير (Buenos Dias). صديقك لن يستطيع مقابلتك اليوم. فى رحلة عمل خارج مدريد . سيمر عليك مساء غد فى الثامنة . كن مستعدا.

– شكرا .. أرجو أن أراك معه يا بيلار.

– ربما .. أحاول . لكن لا أعدك. الثلاجة بها أشياء كثيرة . إذا احتجت شيئا اتصل بى (Adios).

– مع السلامة.

أمران أتعامل معهما برفق وحذر : المرأة .. والسيجارة -رغم حبى الشديد لهما. المرأة .. تحتاج منك الكثير، حتى تعطيك أكثر . السيجارة . حب من طرف واحد، يحرق كل ما يقدر عليه. مع هذا أشتاق الآن إلى سيجارة. عندما يخلو الإنسان إلى نفسه - على غير عادة - تعصف به ذكريات الماضى البعيد أو القريب .. وربما هما معا. الماضى هو الحاضر والمستقبل. ماضى الإنسان ، يحدد ملامح مستقبله. من لا يدرك حدود الماضى ، لا يستطيع أن يكتشف أفق المستقبل.

أبى عبد الرحمن قنديل - يرحمه الله - مثلى الأعلى. تمنيت طوال حياتى أن أكون رجلا محبوبا مثله. بيتنا فى مدينة المنصورة. كان مثل "دوار العمدة " - بحكم أصول أبى الريفية. من يذهب إلى الطبيب، من يدخل ابنه المدرسة ، من يشترى كسوة العيد، من يزور مريضا فى المستشفى، من يبحث عمن يصالحه مع قريب أو زميل أو صديق . كان خيرا بدرجة تغيظ أمى أحيانا . كنت أشفق عليها من كثرة أعمال البيت. تعمل وكيلة مدرسة البنات الإعدادية. معظم أيام الأسبوع لا نتناول الغذاء وحدنا. كثيرا ما تخليت عن سريرى، ونمت على كنبة الصالون من أجل الضيوف. سمعته كثيرا يقول لأمى : الشجرة التى لا تظل أهلها، تستحق قطعها.

ابن موت حقيقى. هكذا علق الذين أصيبوا بصدمة، حينما علموا خبر مقتله تحت عجلات القطار. وهو ذاهب من المنصورة إلى طنطا، ليشرف على لجنة امتحان الثانوية العامة . حاول أن يسرع ، حتى يصل فى الموعد. سقطت رجله. لم يلتفت أحد - بسبب الزحام

– إلى الرجل، الذى سقط تحت عجلات القطار، الذى مضى مسرعا مثل وباء الكوليرا. حادثة بشعة، ومأساة مذهلة. فى لحظة لم تكن معلومة. فى مكان غير متوقع . استشهد أبى. صرت يتيما فى السادسة عشرة، وأمست أمى أرملة فى الأربعين. مازلت أعتقد – حتى اليوم – أن وزارة التربية والتعليم، هى المسئولة عن موت – لا .. عن قتل أبى . الملتزم ملتزم فى أى مكان، والمتسيب متسيب فى كل مكان. أليس كذلك يا معالى الوزير.؟!

مرت علينا أعياد ومواسم كثيرة. الابن دون أب. الزوجة بغير زوج. الوحدة. الغربة . الخوف من المجهول. الحزن . البكاء... لا أدرى.. كم المشاعر الحزينة – التى كنا نعانى منها نحن الاثنين.

تقدم لأمى بعد فترة حداد قصيرة بعض الخطاب . العجيب أن بعضهم كانوا من أقاربنا، الذين يترددون على البيت. ويعرفون منزلة أبى عند أمى. أحدث هذا الأمر السخيف عندى وعندها أزمة نفسية شديدة. الوحيد الذى كنت أتعامل معه فى هذه المرحلة الحزينة، هو طارق منصور . منذ تلك المرحلة إلى هذا اليوم. لم تنقطع علاقتى به .. ولا علاقته بى. لا أظن أن ثمة صفات مشتركة تجمع بين شجرتى التين والزيتون. الصفات المختلفة أكثر من المؤتلفة. هكذا كنت أنا وطارق فى معظم مراحل صداقتنا المشتركة. هو يفضل القسم العلمى. أنا أفضل الأدبى . يحب لعب الكرة والانطلاق ومصاحبة الفتيات والقيام برحلات. لا أجد نفسى إلا مع القراءة والتأمل والرسم. دخل كلية تجارة القاهرة. دخلت كلية الفنون الجميلة بالزمالك.

زادت الألفة بيننا حين سكنا معا مدة سنتين فى بداية الدراسة الجامعية. بعدها قررت أمى الانتقال إلى القاهرة، لتكون قريبة منى. لم تنقطع علاقتى بطارق. كان دائم الزيارة . أمى تعامله كأنه ابنها الثانى . تعد له ما يشاء من وجبات وحلويات. لا تطمئن لأحد من أصدقائى ، كما تطمئن له.

حدثت صدفة غيرت مسيرة حياة طارق . جعلت منه شخصية مختلفة . بعد أن دخل كلية التجارة. أغراه زميل بأن ينضم إلى اتحاد الطلبة.. لجنة الرحلات. لقيت الصدفة رغبة داخلية، أصبح مسئول الرحلات على مستوى الجامعة. تجاوز الرحلات الداخلية إلى الخارجية. زار اليونان . إيطاليا. إسبانيا. فى كل مرة يعود. يحدثنى باستفاضة عن عظمة مدن أوربا. جمال نساء أوربا. تقدم أساليب الحياة فى كل المجالات.

بعد أن أنهى دراسته سافر إلى مدريد من أجل الدراسة ظاهريا، والبحث عن عمل فى الحقيقة.. أو عن مستقبل ، يحقق طموحه اللامحدود.

تعب كثيرا فى السنتين الأوليين. استطاع أن يتقن اللغة . يعرف الشوارع والمحلات. يتعامل مع الغرباء أمثاله من المصريين والعرب . ذهب إلى الجامعة بعد فترة انقطاع طويلة. يسأل عن وضعه الدراسى . تعرف على فتاة شقراء ممتلئة بعض الشىء. ذات شعر مموج . بسيطة . مرحة. اسمها **كارمن جارثيا** . تعمل سكرتيرة. ازدادت الألفة. سقطت الكلفة بعد أن حملت منه. تزوجها. حصل على الجنسية .. وطفل جميل اسمه أوسكار. لا أدرى تفاصيل

ما حدث.. بعد ذلك. كان قليل الحضور إلى مصر - رغم الخطابات والمكالمات، التى تمت بينى وبينه من أجل والديه وإخوته.

رغم البعد ومشاغل الحياة.. لم ينس أى منا الآخر . اختلفنا فى صفات كثيرة . جمع بيننا الحب والإخلاص والرغبة فى تحقيق آمال عريضة. ربما كان هذا هو ما يجمع بين التين والزيتون، وإن كنت لا أدرى من منا التين.. ومن الزيتون .؟!

أردت أن أعد كوبا من الشاى . أوقظ به رأسى المثقل بالذكريات والأحزان. مع البخار المتصاعد من الكوب. تأملت حياتى بعد التخرج من الجامعة. النافذة التى فتحت لى ذراعيها.. وظيفة مدرس رسم فى مدرسة النقراشى الإعدادية . تذكرت مأساة أبى. لم أنسها لحظة واحدة. قالت أمى بأسى : يا بنى لا تغلق بابا ، فتحه الله فى هذه الأيام القاسية.

- لن أعيد سيرة أبى.

- تعرف ظروفنا الصعبة. الحكومة لم تعد مسؤولة عن توظيف أحد . العاطلون بالآلاف.

- ما فائدة الحكومة إذا لم تحل مشاكل الناس . الرسول (ﷺ) يقول : "عدل ساعة فى حكومة، خير من عبادة ستين سنة.! "

- تقول كلاما غير واقعى ، تتحدث عن يوتوبيا مثالية. لقد تعبت...

خنقتها الدموع. من حق هذه الأرملة الحزينة أن تستريح . ارتمت على صدرى باكية بحرقة شديدة . منذ هذه اللحظة أدركت أننا ينبغى أن نتبادل المواقع. أتحمل أنا المسئولية . تستقيل هى

وتستريح .

ذهبت إلى أحد أساتذتى فى الكلية آخـــذ رأيـــه. كـــان معجبـــا بموهبتى. متوسما فى ملامح نبوغ، يبشر بمولد فنان. ينتظر فرصـــة حتى تنطلق ريشته. **الدكتور عمر وجدى** . يقول فرحا عندما يرانى:

- أنت من المنصورة . بلد الفن والجمال . أنجبـــت الفنـــان العظيم محمود مختار ، الذى زاوج فى أسلوبه بين الفن الفرعونـــى والثقافة الحديثة . أول فنان مصرى معاصر. التقط الإزميل من آخر مثال فرعونى. بإذن الله ستكون واحدا من عظماء مصر كلها.

أخبرته بما حدث بينى وبين أمى. علق : كلاكما معه حـــق. إذا كنت تريد أن تحقق رغبتك، فلا تصادر رغبتها.

- ماذا تقصد؟
- ابحث عن عمل آخر. دعها تستريح مـــن حمـــل ثقيـــل. حملته منذ وفاة أبيك.
- ساعدنى إن كان فى مقدورك.
- تعمل رساما فى مجلة؟
- بشرط ألا تكون سياسية.
- عجيب أن يكون هذا رأى شاب مثلك.
- بعض زملائى - الذين عملوا بها- دخلوا المعتقل. أكثرهم أسماؤهم مدونة فى سجلات وزارة الداخلية. يتعرضون للأذى عنـــد أية هزة سياسية.

بفضل هذا الأستاذ النبيل - الذى كنت أجد فيـــه صـــورة لأب مفتقد - عملت فى مؤسسة "دار الهلال" الصحفية. خيرت بين مجلـــة

"حواء" ومجلة "سندباد" . تركت مجلة المرأة، واخترت مجال الأطفال مناجيا نفسى "ابعد عن حواء وغن لها .. ! "

انشطرت حياتى قسمين : قسم العمل. أكل العيش المر . وقسم آخر لنفسى ، أمارس فيه هوايتى الفنية. مثل الفرق بين النهار والليل. البعد بين القسمين . رغم تباعد الأمرين كنت سعيدا. مارست هوايتى المفضلة . أرحت أمى . وإن لم تكن راضية عنى كل الرضا.

بدأت حياتى الفنية متأثرا بالواقع المحلى والتراث الشعبى، مستلهما أحلام الطفولة فى مجتمع ريفى. شغلت – لفترة طويلة – برسم قصائد ملونة : للترعة والقوارب الشراعية، وأشجار التوت والزيزفون والنخيل والأراضى الخضراء، والحيوانات الأليفة، وشوارع القرية فى الأعياد والموالد. اعتقدت – لفترة طويلة – أن براءة القرية وجمال الريف. يحميان الإنسان المعاصر من مادية المدينة وبيوتها الأسمنتية.

كنت أرفض – بشدة – خلال هذه المرحلة الاستجابة لالتزام الفن بقضايا السياسة. أن يكون له "مانيفستو" يفرض عليه من خارجه. لسان حالى يقول : أيها الوطن . أبتعد عنك، لأذوب فيك.. شوقا، عشقا، نارا تتلظى.!!

مكثت فترة طويلة أرسم لوحاتى بعفوية وتلقائية – دون ادعاء باستلهام إطار مدرسة بعينها. أعد نفسى امتدادا لمجموعة من رواد الفن الحديث . تحاول أن تزكى فكرة "تحقيق الذات المصرية" فى الفن. مثل: محمود مختار، محمد حسن، محمود سعيد، سيف وانلى،

راغب عياد، يوسف كامل، محمد ناجى، جمال السجينى ، الذى مات فى أسبانيا (١٩٧٧) ، ودفن فى القاهرة.

نصحنى كثير من الأساتذة والزملاء أن أتجاوز هـذه المرحلـة إلى مرحلة أخرى. أكثر اقترابا من مدارس الفن المعاصر. التطـور السريع للتكنولوجيا ، يؤدى بالضرورة إلى سرعة تغـير المـزاج. يجب إعادة النظر فى الأساليب الفنية، لكى تساير الأذواق المتغيرة.

لم أفكر فى إيطاليا أو فرنسا . اخترت إسبانيا لوجود طـارق.. ولعظمة الفن فيها وكثرة المتاحف. كما أنها لم تتنصل من ماضيـها العربى، بل تعده جزءا عزيزا من تاريخها ، يعطى حضارتها طبيعة خاصة إلى اليوم. قرأت الكثير عن فنها وأدبها. أخيرا.. تحقق الحلـم الذى تمنيته من زمن بعيد. لم أغادر الوطن. لم أنس الفن. لن أغيب عن أمى . جئت أبحث عن قبس من النور. يجدد آفاق الخيال. ينشط مشاعر الوجدان. يعيد جريان المياه فى النهر الساكن.

ثمة سبب آخر . لم أجرؤ على قوله لأحد. امرأة جميلة. رأيتـها لحظة باتساع الأفق. وامتداد الزمن. قلبى يحدثنى هذه هى الملهمـة المجهولة. لم أعرف لها عنوانا فى القاهرة. جئت أبحث عنها فـى مدريد. تلك حقيقة أم رؤيا فنان..؟!

٣- منفيون.. يحنون إلى الوطن

صحبنى طارق إلى **فندق القصر** (Hotel Palace) . قريب من متحف البرادو.. ومبنى الكونجرس. الجمال. العظمة. الديكور الأنيق. أهم ما يلفت نظرك. حارس مثل الفارس بزيه التقليدى وقبعته السوداء. تحس أنك داخل إلى قصر من قصور أمراء العصور الوسطى.

بعد أن تجتاز المدخل الأنيق بسجادته الصينية الملونة المدورة، تجد ساحة واسعة، تغطيها من عل بعيد قبة زجاجية ملونة. تعد واحدة من أكبر القباب فى مدريد. معروف باسم "فندق القبة" . نتجول فى أنحاء الفندق. أشاهد عظمة المكان وجماله. تذكرت قصة النبى سليمان مع بلقيس ملكة اليمن. بنى لها قصرا من البلور الصافى، فحسبته ماء، وكشفت عن ساقيها عندما أرادت الدخول.

طارق ينتقل بى فى صالات الفندق. أرى مظاهر الأبهة والأناقة. كل ركن منسق منمق. الإبهار الفنى ليس فى جمال أروقة الفندق فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى النزلاء والسياح بملابسهم العصرية ، والنساء كاسيات.. عاريات.. كأنهن الياقوت والمرجان.

ثمة علاقة تربط المكان بالإنسان. بين الرؤية والرؤيا.. كنت مندهشا غاية الدهشة. ينطلق خيالى. يعجز لسانى. كم أنت عظيم أيها الصديق العزيز.. طارق. تذكرت فى هذه اللحظة الحالمة أبيات

ابن خفاجة الأندلسى :

يا أهـل أندلـس لله دركم
ماء وظل وأشجار وأنهار
ماجنة الخلد إلا فى دياركم
ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تخشوا بعدها أن تدخلوا سقرا
فليس تدخـل بعـد الجنة النار

دخلنا إحدى قاعات الفندق. طارق ممسكا بيدى، حتى لا أتـوه من البحلقة إلى النزيلات الجميلات. قال مبتسما : أعرفك.. أول مرة ترى اللحم الأبيض.

جلسنا حول مائدة .. قرب نافذة. طلب أن أكون فى المواجهة، حتى تزداد متعتى بالمكان. أما هو فقد ثمل.. ومل.

- ماذا تشرب ؟

- أى مشروب خفيف .

- أنت فى مدريد.. انس القاهرة وما فيها. انس حتـى أمـك. استمتع بالحياة. ما رأيك فى النبيذ الأحمر ؟

- المهم أن نتكلم.

- الشراب يحل عقدة اللسان المربوط.

أحضر النادل الأنيق زجاجة من النبيذ الأحمر، وأطباقا متنوعـة من المزة. أعرف بعضها، ولا علم لى بمعظمها. صـب. صـب. داونى بالتى كانت هى الداء. لو مسها حجر، مسته سراء.

تأملت طارق بعد فرقة طويلة. أمسى هزيلا.. نحيلا. بدا الهزال

فى وجهه. عيناه فيهما قلق ممزوج بالرضا. ملابسه أنيقة. النظارة الذهبية تهبه وسامة وكبرياء. تأملت موضع الشارب الذى كان مغرما به. صار حليقا ناعما. كما فقد الشارب ، فقد – فيما يبدو – أشياء كثيرة. لكنه كسب أكثر.. وأكثر. صار رجلا من رجال الأعمال. له مؤسسة تتعامل مع فروع كثيرة متعددة. أهم عملائه فى مدريد ، والقاهرة ، وبيروت ، ودبى.

– رأيت إخوتى ؟

– أليست الخطابات دليلا على ذلك ؟

– أحبهم .. متضايق منهم ، وحزين عليهم . أعطيهم أموالا كثيرة ، حتى يؤسسوا مشروعا يساعدهم على الحياة . أبدا .. قوم متخلفون . يظنون أنى أحضر المال من البحر . أخيرا بدأت أدرك أنى أسىء إليهم . تثاقلت . لا بد أن يعيش كل فرد حسب ظروفه ، حتى لا يتجاوز حدوده . آسف . جئت أستمع إليك . عندما تحتاج إلى الطعام نبهنى .

– حياتى مستقرة .. ما زلت موظفا فى "دار الهلال". لكنى انتقلت إلى "مجلة المصور". ما يشعرنى حقيقة بالحياة، هو الرسم والتصوير. اشتركت فى أكثر من معرض. نالت لوحاتى رضا كثير من الفنانين والنقاد. بيعت بعضها. لم أحقق منها مكاسب مادية، لكن لها جمهورا بحكم "مصرية الموضوع"، التى ألح عليها.

– بدأت مشروعى فى حجرة من شقة الزوجية. البدايات تكون دائما متواضعة. المهم الاستمرار.

– منذ شهور أقمت معرضا للوحاتى. فى الليلة الثانية لم

يحضر أحد. امرأة واحدة. جاءت بعد الموعد بساعة. بدأت تتـــأمل اللوحات فى صمت.

- المرأة – أحيانا – تصنع المعجزات . زوجتى شـجعتنى- رغم معارضة والديها .

- انتهت من مشاهدة اللوحات . طلبت منها أن تكتب كلمة : "لوحات جميلة . تبشر بمولد فنان موهوب."

- فى البداية .. خسرت كثيرا . وكسبت قليــلا . حــاربنى بعض رجال السوق . ليس لأننى غريب فقط . وإنما لأنى جعلــت المؤسسة تعمل فى التجارة العادية .. بعيدا عن المخدرات والجنس.

- أدهشتنى هذه المرأة . ظننت أنى فنان معروف . لكنــها تقول. لوحاتى تبشر بمولد فنان . زادت دهشتى عندما رفضــت أن تسجل اسمها . بدأت أتأمل وجهها المطمئــن المشــرق ، عينيــها الصافيتن السوداوين ، ملابسها المحتشمة . مثــل أســتاذ يخــاطب تلميذا. قالت بنبرات هادئة: لوحاتك تصدر عــن رؤيــة مكــررة. الريف. المولد . ليلة العيد. الشمس عند الغــروب . توجــد ألــوان شاعرية . تكامل فى تنسيق الظلال . لكن أين الرؤيـــة المحلقــة . المضمون الوثاب، الذى يحرك الشعور واللاشــعور. ؟ بصراحــة أكثر.. لا أرى هدفا عميقا وراء لوحاتك.

- تعرفت بالمصادفة على سيدة شامية، قالت: تريد أن تنجح فى التجارة، احبس عواطفك فى سجن، وألق المفتاح فى جب عميق.

أيتها النجمة الغريبة

البعـيدة القـريبـة

الرحيمـــة القاســـية
الصريحة الغامضة
تقولين: البحر هائج، وأنت ساكن
العالم مجنون، فلم أنت عاقل ؟!
إذا كنت تكرر نفسك
وتثرثر بألوانـــــك
فما جدوى وجودك ؟
حين تجدد إيقاع الرؤية
تتفجر بين أصابعك
موسيقى الألوان
الشكل فى الفن لغة عالمية
يبدعه إحساس مرهف
بالحياة والإنسان
حتى تصل الرسالة
إلى كل أنحاء العالم
هذا ما أوحت به
معشوقة بلا عنوان
كانت على وشك الرحيل
إلى بلاد رقص الفلامينكو
ومصارعة الثيران..!

أخذ النادل يحمل بعض أطباق المزة. يضع أطباقا متنوعة مـــن الأسماك: أحضر لك كأسا ؟

- أنت ستشرب ؟

- لا ترتب أمورك على رضا الآخرين أو سخطهم. ماذا تريد أنت ؟ دائما .. هذا هو المهم.

- لا بأس.. لكن دعنى أسألك: هل يمكن أن تحدث معجزات فى عصرنا ؟

- يا صديقى المعجزات لم تحدث إلا فى عصرنا. التطور الهائل للتكنولوجيا . التليفون المحمول. ثورة الاتصالات. طائرة بغير طيار. الحروب المتوحشة. الكمبيوتر. الإنترنت. الكارت الذى تصرف به النقود من أى مكان. زرع أعضاء جديدة فى جسم إنسان... أليست هذه كلها إنجازات.؟ لكن .. المهم..

- المهم ماذا يا طارق ؟

- أن نفكر بطريقة علمية. العلم هو الأسلوب الأوحد لمسايرة عصر العولمة.

- وبالنسبة لنا ؟

- المسافة بيننا وبين المنهج العلمى فى التفكير.. أبعد مما بين صنعاء ونيويورك.

رأيه الواضح المستنير. جعلنى أمتنع عن ذكر زيارة السيدة المجهولة. سؤال ألح على – في هذه اللحظة: لو بقى طارق.. سيكون بمثل هذا النجاح فى العمل والوضوح فى الرأى ؟ فى مصر آلاف مثل أحمد زويل. هل استطاع واحد منهم أن يحقق أى إنجاز علمى ؟ هذا الرأى ينطبق أيضا على فاروق الباز، ومجدى يعقوب.. ومئات من المصريين الممتازين فى كل بلاد العالم..!!

شربنا. أكلنا. تكلمنا. شبعنا من الشراب والطعام. لكن الكلام لـم ينته بعد. أحسست راحة نفسية وصفاء روحيا. الصديق المخلص فى هذا الزمن الموبوء. نادر الوجود.. غير أنه أمر ضرورى. يكـون بالنسبة لك المنقذ من الضلال. تعـرى لـه أفكـارك ومشـاعرك. تستشيره فى أخص همومك. تأتمنه على أدق أسرارك. الصدر الذى يتسع لك إذا ضاقت عليك الدنيا. أفتقدك كثيرا أيها الصديـق القديـم الجديد.

عندما نزلت من التاكسى أمام البيت - فى شارع أندريـز ميادو - أعطانى طارق مظروفا به بعض النقود: معى دولارات كثيرة.

- هذا بعض واجب الضيافة يا أخى..(Buenas Noches) .. تصبح على خير.

- (Hasta Luego) .. إلى اللقاء.

٤- طعم الخلود

أفضل شيء .. ألا تفعل شيئا بالمرة . نمت كثيرا. استرحت من تعب أيامى الخوالى. البيئة النظيفة. تزيد من الإحساس بالراحة. كنت ساذجا.. بل مغفلا. عندما رفضت كل مناسبة للسفر. حسبت أن السمك إذا خرج من الماء مات. بدأت أغير بعض معتقداتى.

أكتشف معالم الفضاء المكانى للشقة. غرفتان للنوم، صالة كبيرة: أنتريه، مكتبة تليفزيون، مائدة بيضاوية حولها أربعة كراسي. مطبخ . حمام . الزهور فى الشرفة، والصالة، وشباك الحمام. لوحة فنية فى كل حائط أو زاوية، حتى غرفة النوم.. والمطبخ. تماثيل صغيرة فى المكتبة وبعض الأركان. قطع الأثاث مصممة بشكل فنى. الجمال فى البساطة والاتساع. الفراغ المكانى يعطى إحساسا بالراحة النفسية، مثلما يحقق سهولة فى الحركة. تمنيت أن تكون شقتى مثل هذه. تشع منها روح الفن. تركتها لذوق أمى. مثل حراس المتاحف. لا تستطيع أن تتخلص من أى قطعة. عندنا تليفزيون ملون . لكنها تحتفظ بغير الملون، لأن والدى اشتراه.

استرخيت على كنبة الأنتريه المغطاة بقطيفة بنية. أشاهد المذيعة الحسناء. لا أفهم كثيرا مما تقول. أتأمل القد الممشوق. حلاوة الوجه. شعر المهرة. الفستان الأحمر، يبرز ارتواء الذراعين والنهدين. جمال الشكل لا ينفى عظمة المضمون. تتحرك بتلقائية. تحرص على حسن الأداء. تذكرت لوحة الفنان الإيطالى ليوناردو دافنشى "الموناليزا" بهدوئها الملائكى وجمالها الفطرى. الفن

العظيم.. مضمون يتشكل بتلقائية وبساطة. اللوحة الخالدة. يتعانق فيها السكون بالحركة. الضوء باللون. حساسية الفنان بالموضوع الذى يستلهمه. وهذا ما يكسبها انطباعا، يبعدها عن شبهة النقل الحرفى. تلك الحقيقة لم تكن غائبة كثيرا عنى. أحس – فى هذه اللحظة – أننى أكتشفها. أعيها. تحفر فى مخيلتى.

ساعة على شكل قرص الشمس ذات إطار ذهبى. تشير إلى الثامنة مساء الإثنين الحادى عشر من فبراير. لم أحبس نفسى ؟ أنزل إلى الشارع. ما المانع ؟ لبست بنطلونا أسود، وبلوفر رصاصى اللون. بعض النقود. لا داعى لجواز السفر. يضيع أو يسرق. تركت التليفون المحمول. لا أستخدمه فى مصر. أمسكت ورقة وقلما. أرسم خريطة. أعود من حيث أتيت.

قلبى يخفق بشدة مع أول خطوة. حاولت أن أسترجع بعض الجمل والكلمات الإسبانية التى تعلمتها. ذابت حبات الملح فى البحر. هيئ لى.. الناس كلهم ينظرون إلى. شرطى متجهم بعصا غليظة، يطلب بطاقة الهوية. مغربى مغامر، يسرق نقودى. فتاة رومانية – تصنع بى ما يصنعه الغجر فى الغريب: ابتسامات وحركات مفتعلة. تستدرجك فى الكلام. تصل إلى رجل أفاك. تتركك له. ما معك أو حياتك. هذا يحدث لكل الغرباء.. أم أنا الغريب الوحيد فى هذه المدينة ؟!

المحاولة .. يجب أن تستمر . مشيت خطوات . وصلت إلى الشارع. نظرت إلى الرصيف المقابل. ركن الذوق الإنجليزى (El- Corte Inglés). مدينة تجارية كاملة. أتجول فى كل قسم..

عند أى نوع.. فى كل طابق. كل صنف له زبائن. الشـــراء بشــكل جنونى. الناس عندها نقود كثيرة. تنفق عن سعة فـــى كــل شـــىء. توقفت عند ركن العطور. نسيت الزجاجة التى اشترتها أمى . ركـن العطور مزدحم. لا زحام عندنا إلا فى طوابير الخبز. الخبز الحافى.

ليست لدى خبرة فى أنواع العطور. توقفت طويلا. فى الحقيقـــة أريد أن أطيل فترة استمتاعى بالبائعة الحسناء. تبين لى – فيما بعـــد – أننى أقف عند ركن العطر النسائى. انتقلت إلى ناحيـــة أخـــرى. اخترت زجاجة. حـــاولت أن أعـــرف الثمـــن. مكتـــوب بالبيزتـــة (Pesetas). يجب أن يدفع باليورو (Euros). وقفت مترددا برهة. فى تلك اللحظة اصطدمت بفتـــاة. قلـــت مضطربـــا : (Pardón). تأملتها. نظرت مبتسمة. نظرت مندهشا.

- أنت عربى ؟
- نعم .. وأنت ؟
- من المغرب. أقدم لك مساعدة.
- لو سمحت .

دفعت الثمن. أعادت الباقى. قلت: أنا كارم قنديل مـــن مصـــر. تأملت وجهها القمحى. شعرها الأسود. قدها أقرب إلـــى النحافـــة. همت بالمشى: أتمنى لك إقامة طيبة فى مدريد.

- لو سمحت أدعوك إلى شراب. لا أجد من يتكلم العربية.
- ربما.. مرة أخرى. عندى موعد.
- كيف نلتقى ؟
- اتركها للصدفة.

شعرت أنها تتهرب بذكاء. لم تذكر اسمها. أخرجت ورقة بـــها الاسم والعنوان ورقم التليفون: أتمنى أن أسمع صوتك قريبا.

- سأحاول.. مع السلامة سينيوركارم.

أحسست قدرا من النشوة. عندما نطقت اسمى. أول مـــرة أدرك أن له هذا الإيقاع المتناغم. أحببته، لأنها نطقت به. يمنة.. يســـرة. هنا.. هناك. اختفت المغربية الحسناء. قلت للنفس ســاخرا: أطبــق نصيحة المرأة الشامية.. على الفتاة المغربية.

مشيت قليلا. الحركة فى الشارع أهدأ. أقل ازدحاما مـــن أيــام العطلة. نظرت ناحية الرصيف الآخر. لافتـــة بـــالنيون الأزرق – فندق الأميرة (Hotel Princesa). بدلا من أن أرى الناس ماشــيا. أراهم جالسا.. الداخلين والخارجين. قلت للنادل بثقة: Cerveza.

أمارس هواية الناطور. الفنادق عندنا للسياح. معظم الزبائن هنا من الأسبان. رواد الفنادق أكثر شياكة وأناقة مـــن الســائرين فـــى الشوارع. كلما دخل الليل زاد العدد. يعرفون وقت اللهو.. وموعـــد العمل. يلهون بجد. ويعملون بجد. النظام مثل الساعة. إذا قدمـــت أو أخرت اضطرب الميزان. لولا أننى رجل متحضر.. وفنان، لجريت بأقصى سرعة. امرأة جميلة فى صحبة رجل وسيم. ما الذى يجعـــل النساء هنا، وحتى الرجال بهذا القدر من الوسامة والإشراق .. مـــع أن أكثر النساء لا يستعملن أدوات المكيـــاج ؟! تحـــس قـــدرا مـــن الارتياح والأمل عندما تنظر إلى وجه أى إنســان. الحريـــة. عـــدم الكبت. الأمان . جودة الطعام. التأمين الصحى. نظافة البيئة. الطالب أو العامل.. ينقد رئيس الحكومة أو أى وزير. البوليس يحمـــى أيـــة مظاهرة، حتى لو كانت ضد رئيس الدولة. **لا يزال السؤال مطروحا**

منذ عصر رفاعة الطهطاوى: لماذا تقدموا.. وتأخرنا.. ؟!

كأس أخرى يملؤها النادل بالبيرة المزبدة. ما أحلى البيرة فـــى اللحظات الحزينة. شد انتباهى صورة للوحة "الأميرات الصغـيرات" للفنان بلاثكيث (Las Meninas de Velazques) . التناســق الجميل بين الأحجام. توزيع الأضواء والألوان. انسجام الخلفية مــع الموضوع. قدرة الفنان الخارقة. توحى أن الصورة تكـــاد تنطــق. اختلفت العصور والمدارس. الفن الجميل.. يظل خالدا إلى الأبد.

الفن الحديث لم يعد بصريات جميلة فقط. اتسعت دائرته، لتشمل الروح والجسد. العلم والفلسفة. المجتمع والذات. السكون والحركـة. الوجودية والتصوف. الرمز والحلم. الطبيعة وما وراءها. المعنـــى فى الفن الحديث هو فعالية الأشكال فى تكوينها الحر، لـــذا تتعــاظم المعانى والتعبيرات، بقدر ما تكون هذه العلاقات غنية موحية. يمكن القول: إن الشكل هو المعنى والتعبير. تذوق "الحداثة" فـــى الفـــن ، بحث عن المضمون الجمالى لأشكال، تحمل المعانى فى ذاتـــها – لا فى أصولها وثوابتها المتوارثة، التى تقيد الذوق المعاصر.

أعود . أصعد إلى الدور السادس. أفتح الباب. أشــعل أضــواء الشقة كلها. وحيد فى القاهرة.. غريب فى مدريد. لماذا.. لماذا يـــا إلهى ؟! ارتميت على كنبة الأنتريه. جريت نحو الحمـــام. تبولــت كثيرا. لا أستطيع جذب السيفون ليلا، حتى لا أزعج الجيران.

اللـــيل لــك

لــك وحـــدك

تعمل.. تتأمــل

تأكل.. تشــرب

تتنزه.. تتصعلك
تحس معنى الخلود
فى الليل :
الحب له طعم أجمل
الممارسة لها مذاق ألذ
يا أرض أندلس
ضمينى فى الليل
نورى بصيرتى
رشدى خطوتى
هذه ليلتى
لكن.. أين حبيبتى.. ؟!

لم تؤثر البيرة فى رأسى كالعادة. أريد كأسا من خمرة الحب. الجسم فى بلد. والروح فى بلد. يا وحشة الروح، بل يا غربة الجسد. يا قلبى المعذب متى تستريح ؟! يا ليل.. الصب متى غده ؟ تذكرت.. التليفزيون.. أرى صورا جميلة. أسمع أصواتا. أحس أنى لست وحدى. مذيعة حسناء. تلبس ثوبا أحمر. يبدى من مفاتنها أكثر مما يخفى. انتفضت قاعدا.. ثم قائما. اقتربت من الجهاز العجيب. يعطيك الصورة، لكن لا يقدم لك الجسد. تركت التليفزيون مفتوحا، حتى أستمتع بصوتها المثير. أمد يدى نحو الشاشة الملونة. أخطف المذيعة الحسناء. أقبلها. أخلع ثوبها الأحمر. أحملها معى إلى السرير..!!

٥- الماء والخضرة.. والفن الجميل

صحبتني بيلار في زيارة لمتحف البرادو. لا أدري. جاءت وحدها أم بتوجيه من طارق؟ في العاشرة صباحا دقت جرس التليفونكن: أنا في انتظارك. نزلت سريعا. بيلار أنيقة - رغم بساطة الملابس- تايير صوف بني هادئ. حذاء نصف بوت. منتعشة مثل زهور الربيع. وجه صاف. شعرها قصير.

ركبنا المترو من محطة أرجويز. نزلنا ميدان سيبيلس (Cibeles) . أخذنا تذكرة مجانية لدخول متحف البرادو الوطني (Museo Nacional del Prado). كلمة "برادو" مشتقة من الكلمة العربية: المراعي أو البراري. لا أعرف تماما العلاقة بينهما. المتحف له عدة أبواب باسم أشهر الفنانين الذين يضم أعمالهم، مثل بلاثكيث ، وغويا .. بالإضافة إلى الباب الرئيسي.

وضعت بيلار يدها اليمنى في يدي اليسرى، حتى لا أتوه منها: هذه وصية سينيور طارق. يحبك كثيرا.

بداية مشجعة. ترى متحفا مشهورا مع امرأة رقيقة. المرأة الجميلة. تزيد إحساس الرجل بالسعادة. هنا محراب حياتي. هذا موطن سعادتي. الفن سر الوجود. الدنيا متحف للفن الجميل. المتاحف أعظم كنز لشعب، يطلب لنفسه الحضارة والخلود. الفن أسلوب، لا يحتاج إلى ترجمة أو تفسير. أحس الدفء والرضا حين أعيش مثل هذه اللحظة الأبد. أكتشف نفسي مع الفن وبه. الفن نشوة من نوع خاص. تثير المتعة والبهجة، لكنها تثير أيضا

الحزن والشجن. تداخلت اللوحات فــي مخيلتــي. لــم أعــد أدرى الفارق الجوهــرى بين رســوم الفنانين منذ القـــرن الســـادس عشر – قــرن النهضــة – وانتــهاء بأعمال فرانسيســكو غويــا (Francisco De Goya).. فى القرن التاسع عشر.

تداخلت فى مخيلتى أعمال الأسبان بالإيطاليين مثــل رافــائيل (Rafael)، وبابلو فــيرونيس (Bablo Veronés). اكتشــفت أن لوحاتى، التى ينتقدها بعض النقاد والسيدة المجهولة – أقــرب إلــى رؤية الفنان الأسبانى بلاتكيث، الذى يقف تمثاله شامخا أمــام بــاب المتحف. وله شارع باسمه فى مدريد. مأساتى – ومأســاة معظــم رجال الفن التشكيلى عندنا – أننا ولدنا فى بلد مــن بــلاد العــالم الثالث. حتى الفن لا ننجو فيه من الظلم. رغم هذا نقول: عمار يــا مصر. بماذا.. ولماذا.. وكيف هذا.. ؟! آه يا مصر.. دائما تقصمين ظهر المخلصين من أبنائك..!!

جلسنا نشرب القهوة فى كافيتريا المتحف.

– سنيور كارم.. أين ذهبت ؟

– إلى الفن.. إلى مصر.. إلى المجهول.

– تكلم بروح إنسان محب للحياة.

– قلبى حزين. من أين يأتى الكلام الفرح ؟!

أخذت تتحسس جبهتها وشعرها: جئت لتســتريح، فحــاول أن تراجع حساباتك.

فتحت زرار القميص الأخير. وسعت عقدة الكرافتة: هــذا مــا أحاوله.

- ما رأيك فى المتحف ؟
- جميل.. وعظيم. لكن لا وجه للمقارنة بالمتحف المصرى.
نظرت بتجهم. تذيب السكر: المقارنة أسلوب سيئ فى الحوار، بل فى الحياة كلها. الإجابة على قد السؤال.
أتعامل معها بنصف عقل. النصف الآخر لا يزال معلقا بلوحات المتحف وتماثيله. الناس تتجول صامتة خاشعة فى محراب الفن الخالد. طوفت.. فما انتهيت. انتشيت.. وما شبعت. نظرت إليها.. ممسكا يدها: أشكرك.
ابتسمت فى رقة، حتى بدت أسنانها البيضاء: إذا رأى بعض الأشقياء رجلا أسمر مع امرأة بيضاء يقولون : (Café Con Leche) .. قهوة مع اللبن.
اشتريت معظم صور لوحات المتحف. خرجنا من باب غويا. أتأمل تمثاله البرونزى الضخم. أحلم أن يكون لى مثل هذا التمثال. ممكن. لا. مستحيل. بل ألف مستحيل. أعرف السبب. بيلار تمسك يدى. نصعد بعض درجات. نكون فى مستوى الشارع. نظرت وهى تحكم وضع حقيبة اليد فى كتفها. الخضرة والأشجار تعانق العين كثيرا. توقفت عند محطة أتوبيس: كارم. تريد أن ترى ضواحى مدريد مثل السواح ؟
صحت مبتسما: أنا سائح بالفعل يا بيلار.
جاء أتوبيس (Madrid Visión) - رقم (١). الدور الثانى دون سقف. ترى المدينة من عل وأنت مستريح . متى تصبح المرأة عندنا مثل بيلار. حرة .. كاملة الحرية. إذا رغبت جاءت. إذا

رفضت انصرفت. فى الكلية أعجبت بفتاة. لم أستطع الحديث معها إلا بعد سنتين. أبى لم يختل بأمى إلا ليلة الدخلة. أكثر الركاب سواح. بيلار تضع السماعة فى أذنيها. أضع ذراعى على كتفها. لم أهتم بوضع سماعة. اللغات الموجودة ليس من بينها العربية. بصوت ملائكى أستمع الشرح:

حديقة الرتيرو (Retiro) بتماثيلها، وأشجارها، وزهورها، وروادها وعشاقها – باب القلعة (La Puerta de Alcala) – باب الشمس (Peurta del sol) – ميدان سلامنكا (Salamanca)، الذى توجد به السفارات ومعارض الفن – ميدان سبيلس (Plaza de Cibeles) ، حيث توجد تماثيل نافورات الماء بمنظرها البديع – خاصة عندما تضاء ليلا.

الأتوبيس يسير سلسا، كأنه قطعة من الشيكولاتة. الجو مشمس على غير عادة فبراير – بلاسا ما يور (Plaza Mayor) الميدان الكبير، ميدان مسموح فيه بممارسة أى شىء للمواطنين والأجانب – خاصة يومى السبت والأحد: الرسم، التصوير، التجارة، الاحتفال بالأعياد الدينية والوطنية، ملاعب الكرنفال...

مر الأتوبيس – أيضا – ببوابة طليطلة (Puerta de Toledo) – القصر الملكى (Palacio Real) – المسرح الملكى – مقهى ومطعم الأوبرا. يستمع فيه الرواد إلى موسيقيين، ينشدون ألحانا أوبرالية ورومانسية – متحف الملكة صوفيا – محطة الأتوبيس والقطار. آسف يا بيلار. تذكرت ميدان رمسيس بما فيه من فوضى وزحام وتلوث البيئة. رمسيس.. ياجدنا العظيم. متى

نصبح فى مثل قامتك الشامخة ؟ انهضى يا مصر، افتحى صـــدرك للديمقراطية والعدالة والمحبة. أوزوريس الخير مات.. وست يغتـال الفقراء والضعفاء. حورس هل تقدر.. هل تقدر..؟!

– تأمل. هذه بيوت مدريد القديمة وشوارعها الضيقة. حكومة المدينة تحظر تغيير معالمها أو حتى لون الطـــلاء. كـارم.. هـل تفهمنى ؟

– نعم.. يا عزيزتى. أحاول.

تذكرت – وأنا طائر بين السماء والأرض، محير بين إسـبانيا ومصر. هذا الأتوبيس السياحى. تسوقه امرأة نحيلـة شـقراء دون الثلاثين، تلبس زيا أزرق. بالمناسبة أو بالمقارنة، وإن كنت لا أدرى هل هذا يسعد بيلار أم لا. معظم الإسبانيات – مقارنة بالمصريات – لا عجيزة لهن. الظهر مستو، ضامر، يتصل بالورك مـن خلـف. ليست به مرتفعات. مثل الغزال.. يا بيلار. ما الـذى فتـح نوافـذ مخيلتى ؟ المهم أنها تفتحت.

فى الرابعة عصرا تناولنا الغداء. سلطة خضراء. بيرة. سـمك. جمبرى. بيلار تأكل بهدوء دون أن تتناول قطعة خبز واحدة.

– ما أخبار طارق ؟

تناولت زيتونة خضراء: ماذا تريد أن تعرف ؟

– كل ما يمكن أن يطمئن صديقا على صديقه.

– نموذج مشرف للوافد، الذى يريد أن يثبت وجوده. يعمـل كثيرا. يكسب كثيرا. يستثمر كل ما يكسب. لكنـه لا يـهتم كثـيرا بصحته. لا يترك التدخين رغم تحذير الأطباء.

رشفت رشفة من كأس البيرة: وأسرته ؟

- شديد الإخلاص لزوجته. يحب أوسكار. يعطيه كل ما يطلب. كنت أتمنى أن أجد زوجا مثله ؟

- بالمناسبة.. لماذا ؟

- تجربة أبى الفاشلة مع أمى الألمانية، جعلتنى لا أفكر.

لم أرغب فى أن أتكلم معها فى حديث، لا يبدو أنه سعيد بالنسبة لها: وأنت.. ما علاقتك به ؟

- منذ عشر سنوات أعرفه. أعمل معه بإخلاص شديد. الوحيدة التى يأتمنها على أسرار المؤسسة بعد زوجته كارمن جارثيا.

رفضت أن تدفع الحساب: يكفى أننى أتعبتك اليوم.

- العطلة دائما لمثل هذه الجولات السعيدة. نستمتع بالطول والعرض، حتى نقبل على العمل بنشاط.

- المطعم قريب من البيت. أمسكت يدها: نتحدث معا.. تمر أيام. لا أكلم أحدا.

معا.. ذهبنا إلى البيت. الأسانسير يصعد بهدوء إلى الطابق السادس. أضع المفتاح فى موضعه. الباب يفتح بسهولة. جو الصالة مريح دون ضوء مبهر. النور يشع من الداخل. رمت الجاكتة. وضعت الحقيبة عند أول كرسي.

جلست. حمامة وديعة. تفيض رقة ودلالا. هادئة حتى حين تتكلم.

- ماذا تشربين ؟

- ابتسمت وهى تسترخى على كنبة الأنتريه: قهوة مع اللبن..!!

٦- وجاء العيد

الجمعة ٢٢ فبراير ليلة عيد الأضحى. أول عيد يمر بعيدا عن أمي . أهم طقوس العيد -عندها . . وعندى - زيارة قبر أبى رحمه الله . لم نتخفف من ذلك إلا بعد الانتقال إلى القاهرة . العيد عندى مناسبة لتجديد الأحزان . لم اختار الموت أبى ؟ ! لماذا أحمل الهم منذ صباى ؟ ! أسئلة كثيرة . بعضها أكبر من طاقتى . جعلنى اليتم ، الحزن ، الفقر ، رجلا قبل أن تخضر ذقنى ، فنانا دون رفاقى . إنسانا يحاول حل لغز أصعب من لغز أوديب. الميلاد / الموت . العدل / الظلم . الغنى / الفقر . التقدم / التأخر . . لماذا ؟ إذا كانت النهاية حفرة فى باطن الأرض، فلم يغتال اليهود أهل فلسطين ، يدمر الأمريكان بلاد الأفغان ، يفتك الثالوث المدمر : الفقر / الجهل / المرض ملايين الأبرياء فى القارة السوداء والصفراء.. ؟ !

رن جرس التليفون . مشيت متباطئا .

- أستاذ كارم . . عيدك بخير .

- كل سنة وأنت طيبة . من أتشرف بسماع صوتها ؟

جلست على الفوتيه بعد أن كنت واقفا . لا يزال الصوت الرقيق يملأ سمعى : قابلتك فى الكورت إنجليز . نسيت ؟

- لم أنس . لم أكن أظن . سعيد بهذه المفاجأة . الليلة عيد بحق.

- بالمناسبة ماذا تعمل ؟

- فنان تشكيلى .
- لا تبالغ أيها الفنان .
- متى أراك ؟ أين ؟ قولى .
- قريبا . لا تتعجل . الصبر طيب .
- صبرت أربعين سنة . ما اسمك ؟
- نادرة .
- اسم حلو . لم أتوقع لك غيره.
- كل سنة وأنت بخير مرة أخرى . أراك قريبا .
- صحيح ؟
- أرجو أن تثق فى كلامى .

أغلقت التليفون من ناحيتها . بقى الجهاز الذى حمل صوتها فى يدى . ختمت المكالمة سريعا . كنت قد نسيت بالفعل. أتخيل صورتها، صوتها. ما الذى ذكرها بى . العيد. ربما.. ربما . عيد .. بأية حال عدت يا عيد ؟ لا أدرى كيف مرت هذه الليلة من ليالى مدريد .

اليوم. . أزور طارق فى بيته . أخ لم تلده أمى . مصرى أصيل. شرب من نهر النيل . اللقاء معه ذو طعم خاص . دائما وقته مشغول ، وإذا لقيته فباله مشغول . كأنما يسابق الزمان. تغير . لكنه رجل ، يفهم طبيعة عصر العولمة .

فى شارع كولون (Colón) . ثلاث غرف . أنيقة . كل ركن يجذبك إليه شىء ما . تمثال . لوحة . آنية زهور . سجادة يدوية . لوحة للنيل فى الليل. البلكونة – تبدو من غرفة الصالون ــ حديقة .

تمتع العين . تغذى الفؤاد . الزهور نجوم الأرض . رموز الحب . صحبنى طارق من البيت إلى هنا . سلمت على كارمن . قبلت خديها . تبدو أصغر من سنها . فستان أخضر . يذكرك بالخصوبة والعطاء . قالت بعربية مكسرة : كل سنة .. إنت طيب. تفضل . هذه دارك .

- شكرا سنيورة كارمن .

- طارق يكلمنى عنك .. كويس كتير.

الحكمة والبساطة .أهم ما يميز هذه السيدة الفاضلة . ليست على قدر كبير من الجمال والرشاقة . يكفى حسن الطباع ، صدق الوفاء، طيب المعاشرة. عمق المضمون، يمنح الشكل جمالا من نوع خاص.

أشعل سيجارة : ما أخبار الفنان العظيم ؟

- فى مرحلة توقف . أحاول تعديل الرؤية. كنت مهتما بالطبيعة . اليوم أنا مشغول بالإنسان . أحاول التعبير من خلال البروتريه ورسم الوجه . . أو الجسد كله .

- ماذا تعنى ؟

- الطبيعة الأنثى الإلهية . من رحمها يولد الإنسان . هناك فرق بين الأم والأبناء . الحياة أسطورة خصوبة دائمة ونماء متواصل . الفنان مثل النحلة . لا يستقر عند زهرة واحدة.

دخلت كارمن . تحمل الشاى وطبق جاتوه . قال طارق : لا تأكل كثيرا . أعددنا لك وجبة مصرية .

- أنا مصرية يا سنيور . عملت لك أم على .. وأرز باللبن .

- أنا ذواقة .

قالت وهى تقدم كوب الشاى : المصريـون يحبـون النسـاء . اسألنى . اسألنى أنا . زوجى (Zoro) ثعلب خطير يا كارم .

- كان هذا أيام الشباب يا حبيبتى .

جاء أوسكار . معه صديقته إيزابيلا . عانقته وقبلت صديقتـه . شاب فى العشرين. ممتلئ حيوية وبهجة. جسمه أقرب إلـى الأم . وجهه فيه بعض ملامح الأب . إيزابيلا صبية فى حوالـى السـابعة عشرة . فراشة حالمة . نحيلة جدا . الوجه هادئ ومريـح . تتبـع أوسكار ، حتى لو ذهب إلى المطبخ. ليت أيام الشباب تعود . حتـى لو عادت ما الفائدة ؟ !

عندما نحس سعادة فى أى وقت ، فهذا يـوم عيـد . السـعادة الحقيقية أن نكون مع الآخرين . الدفء . الأمان . الأمل . معانى لا تدركها إلا مع البشر . بهم . . ومن أجلهم . العيد عطاء وتواصل ، محبة وفرحة .

قلت له وهو يوصلنى بعربته البيضاء : شكرا على كل شيء .

- أنت أخ عزيز وصديق قديم. لماذا لم تفكر فـى الـزواج ياعجوز؟

- ذكرتنى بأمى .

- أطال الله عمرها . أمر عليك مساء غد فى الثامنة. أعددت لك سهرة خاصة مع بعض المغتربين العرب.

تأججت مشاعرى حين كلمت أمى . لا تـزال ترانـى صبيـا

صغيرا . إذا غاب عنها ضاع .. تاه . تألم . لو تزوجت لكان عندى ابن فى مثل سن أوسكار . قلب الأم دائما هكذا .

- متى تعود يا كارم ؟

- عندما تنتهى المهمة، التى جئت من أجلها .

- اهتم بنفسك . حافظ من البرد . اشرب اللبن فى الصباح . نسيت زجاجة الكولونيا.

- اشتريت غيرها . مع السلامة يا ماما.

نسيت الزجاجة . اطمئنى يا أمى . اشتريت غيرها ؛ الراحة تمنح الإنسان سعادة وحكمة من نوع خاص . ارتميت بملابسى فوق السرير. أغمضت عينى . رأيت فيما يرى النائم :

أسير فى طريق
بغير زاد أو رفيق
لا أحد هنا
لا نجم هناك
لا ضوء .. لا لون .. لا صوت
الكون موت
من عنق زجاجة درية
تجذبنى نجمة ذهبية
نحو الأضواء القدسية
مثل عروس البحر تصير
نحوها أسير

العروس الذى أنتظر
الفتح الذى جاد به القدر
ضمنى أيها الفلك
أرى أو أحترق
ما أجملك
أنت الملك
ما أجملك .. !

٧- الغثيان

ما أفعله فى حياتى : عشقا للمرأة ، حبا للوطن ، التزاما بالشرف ، تمسكا بالصدق - يدور فى إطار البحث عن زيت . يشعل فى أعماقى جذوة الفن المقدسة . بين الإلهام والخلق تولد اللوحة . تصبح جزءا من وجدان . يفيض حبا للحياة والأحياء . لوحاتى مجاهدات ومكابدات . اللوحة أنا. وأنا اللوحة . العالمية فى الفن أكذوبة كبرى وخيانة عظمى . الفن لا يكون صورة محلية لأصل بعيد . المهم دوما أن يتشكل من واقعنا الخاص ، حتى لا نقع فى فخّ العولمة .

عصر اليوم الثانى من أيام العيد . تأملت زجاجة النبيذ الأحمر. ما حكاية الزجاجات معى ؟ زجاجة عطر. زجاجة فى المنام . تذكرت الزجاجة المسحورة التى قرأت عنها فى " ألف ليلة وليلة ". صببت كأساً . النبيذ الأحمر ، ينفع فى اليوم الأبيض .

أثار اللون الأحمر فيضان التأمل . معرفة قانون الألوان المتداخلة وتكوين الظلال . هذه روح الفن . بصرف النظر عن الموضوع . الفن تعبير ذاتى عن الطبيعة ، وليس محاكاة لها . الإنسان البدائى توصّل - بالفطرة - إلى هذه الرؤية الصادقة . ليتنا نعود إلى الأصل . النبع الفيّاض الذى لا ينضب ، حتى لا تتلاشى صورة الأنا فى فلك الآخر .

يهيأ لى - أحياناً - أننى من ذوى المقامات . حين يستغرقنى مقام الإبداع .. أو التأمل . لا أدرى متى أعود . رنّ جرس

التليفون. غريق .. لا يفيق . تحركت متكاسـلا . أتتبـع مصـدر الرنين، حتى أعرف مكان التليفون . .

- أستاذ كارم . لم تأخرت فى الرد ؟
- من ؟
- نادرة . . نسيتنى ؟ !
- آسف . كنت مشغولا . سعيد بمكالمتك .
- نلتقى مساء اليوم ؟
- مساء الغد . عندى موعد مهم . أرجوك . انتظرت هـذه الفرصة طويلا
- موعد . . أم لقاء مع إسبانية ؟
- حددى المكان .. والزمان يا جميلة .
- المكان الذى التقينا فيه . السادسة مساء .
- إلى اللقاء . لا تتأخرى .

تمنيت اللقاء منذ رأيتها . الليلة هى تريد . أنا لا أستطيع . هـذه هى الدنيا . الغد ليس ببعيد. ما الذى ذكرها بـى ؟ حسـبت اللقـاء مصادفة. أكثر المواقف تحدث هكذا. المهم أن تحسن توظيفها . فـى الأمر شيء. قلبى يحدثنى. لا شيء .. ولا يحزنـون . لـم أنـت متشائم؟ لا قيد هنا يربط إنسانا بآخر إلا الرغبة المشتركة . أحـب عيشة الحرية . الحرية – يا وطننا العربى – يمارسها أبناؤك فـى الخارج. ويعدمونها فى الداخل .

مع طارق ذهبت فى الثامنة مساء إلى شقة **خليل نصر الله**.. لبنانى. عمره يتجاوز الخامسة والستين . جاء إلى إسبانيا عن طريق

الأرجنتين . صاحب مطعم .. وبار . أبيض الوجه . ممتلئ الجسم . وجهه يشع راحة ورضا . ذو شارب كبير . شعاره : فى مدريد . . افعل ما تريد . المهم ألا تعمل مشكلة .

استقبلنا بحفاوة . تعرفت على الضيوف :

خالد مروان . . فلسطينى . فى الخامسة والخمسين . ترك الضفة الغربية بعد نكسة ١٩٦٧ . يعمل مترجما فى السفارة السعودية . متجهم الملامح . أقرب إلى الامتلاء . فى نظراته غموض وقلق ، يداريهما- أحيانا - بتحسس شاربه الأصفر ، أو تحريك مسبحة سوداء .

الطاهر بن يحيى . . تونسى . فى الأربعين . وسيم جاف العود. نحيل الجسم . يهتم بتصفيف شعره . يعمل موظفا فى حكومة مدريد المحلية .

حميد بوعلى . . مغربى . فى الخامسة والأربعين . نحيل . طويل . يصمت كثيرا . يتكلم قليلا . مشغول بهمومه الخاصة .

شعاره العمل أفضل من الثرثرة . يعمل فى تجارة الهدايا والتحف المحلية.

جاسم الجبورى .. عراقى . فى الرابعة والخمسين. أستاذ فى معهد اللغات الأجنبية .. ممتلئ نسبيا . فى داخله أحزان أطول من نخيل البصرة . يبدو أكبر من سنه . يكثر من التدخين والشرب.

فيكتور جبرائيل . . يهودى . مغربى الأصل. يعمل مشرفا على قسم الأخبار السياسية فى جريدة البلد (El Pais). فى الخمسين. قسمات وجهه الأبيض ، لا تعكس شيئا مما بداخله . متحفظ فى

حديثه إلى حد ما . يحاول أن يسمع أكثر مما يتكلم .

حسام عبدالكريم .. مصرى فى الخامسة والخمسين . أقرب إلى السمرة . نحيل إلى حد ما . أنيق المظهر . من مواليد أسيوط . يعمل أستاذا للتاريخ الإسلامى بالجامعة. قليل الكلام . سريع الملاحظة . حاد الانفعال .

رانية نعيم . . مترجمة فورية وصحفية سورية . تعمل مراسلة لأكثر من جريدة خليجية . تكافح من أجل الحصول على الجنسية الإسبانية وعمل ثابت فى صحيفة . مطلقة . فى الخامسة والثلاثين . ذات جمال هادئ . بشرة بيضاء . شعر مسترسل ناعم. يذكرك بشعر مهرة عربية أصيلة ، تبحث عن خيال .

قال خليل مبتسما وهو يضع السيجار – سيجار هافانا – فى طفاية على المائدة : هؤلاء الأصدقاء جميعا من الأسبان العرب . كلهم يحملون الجنسية المشتركة . لا أظن واحدا منهم سوف يحتاج إلى جواز سفره العربى . اسمحوا أن أرحب بالسنيور **فرانسسكو مارتينس** .. مدير المعهد الثقافى الإسبانى بالإسكندرية مدة طويلة . محب للعرب جميعا . يجيد الكلام بالعامية المصرية ، ويعد نفسه "ابن بلد " . فى السبعين . وسيم . ممتلئ الجسم نسبيا . كان يتمنى أن يحصل على الجنسية المصرية ، حتى يزور مصر متى يشاء.

الزهرة الجميلة فى هذه الليلة السنيورة **ماريا إيفا خوسيه**.. كاتبة روائية، وعضو الحزب الاشتراكى . سجنت فى أواخر أيام الجنرال فرانكو، لأنها وقفت بشجاعة تدعو إلى الحرية والاشتراكية. تشغل وظيفة قيادية فى الحزب . تجاوزت الستين . قوام نحيل أقرب

إلى الطول . الوجه ذو بياض صاف . العينان زرقـاوان. تناصر قضايا الحرية والاشتراكية في أى مكان . حادة الانفعـال .عاليـة الصوت .

تساءلت وأنا أنظر ناحية طارق : كم عدد العرب هنا ؟

أجاب الطاهر بن يحيى : مليونان تقريبا .

- لم لا تفكرون في عمل نقابة أو اتحاد ؟

صاح خليل . . وهو يرفع كأس النبيذ : شوها الحكى يا زلمة . الوطن العربى .. كله اتحادات وجمعيات . شو عملت ؟

أردف جاسم ساخرا : حتى المؤتمرات الخطابية . التى يسمونها مؤتمرات قمة ، لا جدوى منها .

واصل حسام بانفعال : جامعة الدول العربية أقدم من الاتحـاد الأوربى بكثير. ماذا صنعت ؟هل أصدرت قرارا واحدا ، لصـالح المواطن العربى ؟ لم يلغوا جوازات السفر . لم يوحدوا العملة . لـم يقيموا قاعدة صناعية موحدة . أو سوقا مشتركة. قل ألف لا .. ولا. عالمنا يدور فى حلقة مفرغة مثل ساقية جحا..!

أضاف خالد : حتى قضية شعبنا فى فلسطين .. شو صار فيـها. كله كلام . . فى كلام . لا اليهود يرحمونا ، ولا العرب يساعدونا . الله معنا.

رد فيكتور : فلسطين أرضنا قبلكم منـذ ألفـى عـام .اليـهود أصحاب الديانة الوحيدة، الذين ليس لهم وطـن . البـلاد العربيـة واسعة. أخذنا اليهود العرب . عليكم أن تستوعبوا الفلسطينيين. أنتـم اثنتان وعشرون دولة . نريد أن نعيش معكم فى سلام . نحـن أولاد

عم يا أخى .

– هذه مغالطة تاريخية – واصل مارتينس – منذ أقل من قرن، تغيرت خرائط معظم الدول فى العالم . الحق التاريخى لليهود فى فلسطين أسطورة غير حقيقية . هذه مسألة يعرفها الإسرائيليون أنفسهم .

قال حميد بوعلى : كنا نتوقع من إسبانيا ، باعتبارها أقرب الشعوب الأوربية إلينا ، أن تقوم بدور أكبر من أجل الدفاع عن القضايا العربية.

ردت إيفا بصوت حاد : تسلمون الولايات المتحدة كل مفاتيح بلادكم .. وأموال بترولكم . ثم تطلبون من بعض الدول المعتدلة مساعدتكم . كيف يعقل هذا . . ؟!

قال طارق : المصائب العربية سوف تزداد بعد فرض العولمة.. وأحداث سبتمبر ٢٠٠١ .

قلت وأنا أنظر إلى إيفا : الدعاية عليها عامل كبير . ينبغى أن نجمل صورة العربى فى الإعلام الغربى .

رد حسام : كيف تجمل الصورة ، والأصل غير جميل..؟ !

قالت إيفا : العرب لن يتقدموا خطوة واحدة قبل أن يسمحوا بالديمقراطية ، والاشتراكية ، والمساواة بين الجميع.. من رئيس الدولة إلى أصغر عامل .

رد جاسم وهو يشعل سيجارة : الحكام عندنا مشغولون بالمحافظة على الكرسى، وتوريث الحكم ، وتحقيق مصالح أسرهم الخاصة، حتى لو شرب المواطنون كلهم من البحر .

صالح فيكتور : كل ما قالته السنيورة إيفا موجود فى إسرائيل . هى الدولة المؤهلة لقيادة المنطقة يا أصدقائى.

قال خليل : لا تيأسوا يا شباب . أمتنا تعرضت لمحن كثيرة، لكنها تنهض من جديد .

قال خالد منفعلا : أمجاد يا عرب أمجاد . . !!!

أردف حميد منكسرا، وهو يرفع كأس النبيذ: يا قوم.. اشربوا فى صحة الأحزان العربية .

قال خليل ضاحكا : بقى شىء من تقاليد المؤتمرات العربية . تفضلوا . العشاء جاهز.

اقتربت من السيدة رانية : لماذا لم تشاركى فى الحوار ؟

ردت فى هدوء : هل تعتقد أن الكلام له فائدة فى عالمنا العربى؟ صوت بندقية واحدة. أقوى تأثيرا من مقالات عشر صحف، تدعى الثورية واليسارية .

- صدقت . يمكن أن نلتقى مرة أخرى ؟

- مائة أهلا وسهلا . تكرم عينى .

فى طريق العودة لاحظ طارق أننى مكتئب . يعرف منذ أيام الصبا أننى إذا حزنت سكت: المواطنون فى الوطن العربى عاجزون عن حل مشكلاته ، فهل تتوقع أن يقدر على ذلك المغتربون ؟ لا تهتم . أعرف أنك تحاول أن تبتعد عن كل ما يتعلق بالسياسة .

- السياسة اليوم تفرض نفسها عليك ، وأنت تأكل سندوتش فول أو طعمية - إذا وجد .

- حاول أن تستمتع بوقتك . مدريد مدينة جميلة . أسبانيا من

أهم الدول السياحية فى العالم . تصور ؟

- ماذا ؟

- السكان أربعون مليونا .. والسواح يزيدون عن ستين مليونا كل سنة . هل رأيت بلدا عدد السواح فيه أكثر من عدد السكان ؟ أليست هذه معجزة ..!

- كنت أظن السياحة متقدمة فى مصر .

- السائح لا يأتى للبكاء على الأطلال ، أو مشاهدة بعض التماثيل والمعابد القديمة . يدفع أموالا . يريد متعة من كل لون وشكل . خدمة ممتازة ، تسهيلات حضارية فى المواصلات والاتصالات والفندقة .

- صدقت . السياحة - اليوم - علم . ليست فهلوة أو صناعة محلية متخلفة . إذا لم ترح السائح فلم يعود إليك ؟ !

- إن لم نوظف العلم فى كل شىء ، فسوف نواجه كوارث ، لا يعلم حجمها إلا الله .

تأخر الليل . عصانى النوم . تداخل أى شىء فى كل شىء . جلست متعبا على الكرسى ، الذى تقعد عليه بيلار . لم أرغب فى إشعال الضوء . أمد ساقى المجهدتين على مائدة رخامية منخفضة . مأساة فلسطين لا حل لها . ما الذى له حل فى بلادنا ؟ اليهود يقتلون الفلسطينيين . العرب متخاذلون فى الدفاع عنهم. الديمقراطية غائبة. أزمات كثيرة حاضرة . معظم الناس لا يجدون لقمة العيش مع ذلك ينجبون مثل الماعز أو الأرانب . الوزراء عندنا يرتبطون بكرسى الوزارة مدة عشرين عاما أو يزيد . لا تعرف لماذا جاءوا ، ولا

تفهم لماذا ذهبوا. ظن البعض أن تربية اللحى ولبس النقاب طريـــق الخلاص . الحاكم العادل خير من ألف فقيـــه زاهـــد . عمـــر بـــن الخطاب – وهو فى المدينة المنورة – قال : لو مـــاتت دابـــة فـــى العراق ، كنت مسئولا عنها . .!! اليوم يموت الآلاف : مرضا ، أو جوعا ، أو أحداثا مؤسفة ، وحكامنا فى برج ماسى . مـــاذا يحـــدث للفيل لو ماتت نملة ؟ ! يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، أو اخرجـــوا من جحوركم . فكرة مدهشة .. أتمنى أن أعبر عنها فى لوحة فنية .

أحسست رغبة فى دخول الحمام . أتقيأ . أخرج كل مـــا فـــى معدتى . تكاد روحى تزهق . أمعائى لا تكف عن الانقبـــاض مـــدا وجزرا . لم يحدث لى مثل هذا من قبل . أغسل فمـــى ووجـــهى . أبصق فى الحوض . صداع يزلزل كيانى . قبل أن أخرج .. أضغط على السيفون – بقوة . مع أنى أعرف أن ذلك لا يجوز فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل . . ! !

٨- ظلال الألوان

استيقظت فى الثانية ظهرا . رأسى به خدر خفيف ، مع أنى لم أفرط فى الشراب. حلقت الذقن. أخذت حماما باردا . أمشط شعرى. أنكر ذاتى أمام المرآة . هذا الرجل .. أكاد لا أعرفه . جسد متوسط الطول والامتلاء . شعر أسود مثل أمواج النيل . وجه قمحى .. أقرب إلى اللون الخمرى. العينان السوداوان، يتحركان فى بحر متكدر . الملاح تائه . حين يصل إلى شاطئ ، يبحر إلى ما بعده . تعبت كثيرا فى هذه الحياة . أخشى على نفسى من نفسى . أحيانا - يبكى بعضى على بعضى . أيها الفنان الضال .. أما آن لك أن تستريح ؟ !

كيف أستريح ؟ كل الأنهار تصب فى البحر . والبحر ليس بملآن . مشاعر الفنان. تشعل فى ضميرى نارا تتلظى . أحمل حبا، لو وزع على أهل الأرض جميعا لكفاهم . إمام هذا الزمان . يحمل غصن الزيتون وحمامة السلام . قلبى مرعى لكل الأجناس والديانات . إلى . .إلى .. يافاعلى الإثم ومرتكبى السوء . أطهركم من الخطايا والذنوب. أسقيكم شراب المحبة. أعمدكم فى بئر الأخوة. أربط بينكم حبل الصفاء . ليكن على الأرض المحبة . وفى السماء السلام . السلام هو الله . . يا خلق الله .

تناولت كوبا من الحليب الساخن . هدأت معدتى . أحس قدرا من الصفاء النفسى. الحب دواء الروح فى عالم . سيطرت عليه المادة . شفاء الروح أتعب جسدى وفكرى .تغربت هنا . تعذبت

هناك . من أجلك يا أمى سأعود . سامحينى . . هذا قدرى .

شربت كوبا آخر من القهوة مع اللبن . تذكرت بيلار . لكن الليلة موعد نادرة . اسمها يصلح صفة لكل نساء الدنيا الحسناوات . بدأت أستعد ، حتى لا أتوه مع شطحاتى وتأملاتى . امرأة جميلة يمكن أن تلهم الفنان كل معانى الإبداع . المعرفة ليست فى الكتب وحدها . كل إنسان فى هذه الدنيا كتاب مفتوح. المهم من يقرأ .. ومن يفهم؟!

يزداد خفقان قلبى مع كل خطوة ناجية الكورت إنجليز . هل تأتى ؟ ! لم لا ؟ هى التى طلبت . دخلنا من الباب فى لحظة واحدة. أسرع كلانا نحو الآخر . مغتربان وحدت بينهما مشاعر البعد عن الأهل والوطن .

- نادرة .

- كارم .

كدت أقبلها . خشيت سوء الظن . لا تقطف التفاحة قبل أن تنضج . أمسكت يدها الرقيقة . نهر من الحنان الهادئ . يحرك شغاف القلب. فرحة اللقاء . جعلتنى أحس أنى فى جزيرة منعزلة . لا أحد سوى كارم ونادرة . أتأملها معجبا من الرأس إلى القدم . أيقظتنى :

- أين تذهب ؟

- ما ترين .

- لا أحب الأماكن الضيقة .

- فندق البرنسيسا قريب من هنا .

فى ركن هادئ . تحت ضوء شاحب . . جمعتنا لحظة ، تعــدل العمر . قدها رمح فارس من فرسان الأساطير. نحيلة مثـــل ريــم الفلا. بين الشعر الفاحم والوجه المشرق . ترى الليل والنهار فى آن واحد . تفاحتا الخدين تكشفان عن حمرة خفيفة . دائما تبدو مبتسمة. حبات اللؤلؤ تضيء خلف شفتين مكتنزتين . تلك هى اللوحة ، التـى أتمنى أن تكون بداية العقد الفريد لأعمالى القادمة . كم أنت جميلــة يانادرة . . ! !

طلبت كوبين من عصير البرتقال حسب رغبتــها . أخشــى أن أذوب فى مقام العشق . إذا استغرقتنى حالة، نســيت مــا عداهــا . مجذوب تحرقه خمرة الشوق. سكران ولا خمر. لا تناجى نفســك. يكفى . . يكفى . أفق ..!!

- انتظرت شهرا ، حتى أراك.
- فتاة وحيدة . تخيل مشاغلها فى مجتمع غريب.
- لا أحد يعمل فى الليل .
- ظروف . لم أكن أتوقع . .
- أود أن أتعرف عليك.
- قد تسمح مناسبة أخرى . لماذا جئت ؟
- ربما من أجل قبس . يشعل جذوة الفن .

قربت الكأس إلى فمها : تبحث عن إلهام أم عن ملهمة ؟

- إذا اجتمع اثنان فى واحد ، يكون خيرا وبركة.

صمتت لحظة .هيئ لى . تقول : هنئت لك . لم يتكلم أحد منـــا عن ماضيه .. أو جروحه . بداية لقاء. ربما الأول . وقـــد يكــون

الأخير . لا . لا . قلبى يحدثنى . فى الفستان الأحمر . وردة متفتحة من زهور الربيع . نظرت إلى ساعتها : مرت ساعتان . يجب أن أعود .

- نشرب قهوة . ثم نذهب .
- فى الليل لا أتناول القهوة .
- الشاى .

عظيم . القهوة مع بيلار . الشاى مع نادرة . قسمة عادلة . هذه.. غير تلك . ليست كل الفاكهة سواء .

بعد الخروج من الفندق. رأيت شابا وفتاة . تحت ضوء عامود نور . الشاب والفتاة . اثنان فى واحد . شاهدت مثل هذا كثيرا . بشرى تدعو إلى التفاؤل . برودة منعشة . تفرق بين الخارج و الداخل . مشيت بجوارها . أمسكت يدها عند عبور الشارع. بعد ذلك قلت : تسمحين أن أمسك يدك ؟

- إذا كانت هذه رغبتك .

تمنيت أن أسير معها حتى نهاية المدينة. افترقنا فى المكان الذى التقينا فيه . الإنسان ينتهى حيث بدأ . قبلتها . ودعتها . اختفت فى زحام ليل مدريد.

مساء ذهبت لزيارة طارق فى مكتبه . قابلت بيلار . البساطة والأناقة – دون تكلف. أهم ما يميز هذه المرأة الرشيقة . حين رأتنى لم تنفعل . كأن لم يكن بينى وبينها أشياء . رحب بى طارق رغم كثرة مشاغله . التليفون المحمول ، لا يتوقف . يستمع كثيرا . يتكلم قليلا . مارلبورو الأحمر مشتعل دائما . الأمريكان يجيدون صنع

المواد الحارقة .

دخل حسام عبدالكريم . جاء يطلب القيام برحلة إلى إيران . فى العمل لا يقدم الشاى أو القهوة . . أو حتى كوب ماء . العمل عمل . اعتذر طارق . طلب من حسام أن يصحبنى فى جولة نيابة عنــــه . قال طارق : يجب أن تتعرف على بعض المصريين . هنا نمـــاذج مشرّفة . دكتور حسام أستاذ كبير . سمعته العلمية طيبة فى الأوساط الأكاديمية الإسبانية والعربية .

ركبنا المترو . نزلنا بالقرب من ميدان " بلاسامايور " . المـترو والأوتبيس . . أهم وسيلتيْن للمواصلات ، حتى لمن يملـــكُ ســيارة خاصة . شاهدنا القصر الملكى ، والكنيسة المجاورة له . العظمـــة والجلال والنظافة المتناهية عند أىّ أثـــر . . وفـــى كـــل مكـــان . القصور . المتاحف . الكنائس . التماثيل . نافورات المياه . الحدائق. الخضرة . الاتساق فى أشكال المنازل الحديثة والقديمـــة . حكومـــة المدينة تهتم بكل شىء ، حتى عمال النظافة . البوليس يحمـــى كـــل الناس ، حتى الذين دخلوا البلد بطريقة غير شرعية .

الحركة فى " بلاسامايور " ليلاً أكثر إمتاعاً . زرته مرات . تحدثــتُ مع بعض الرسّامين من جنسيات مختلفة . لفت انتباهى لوحات فنان شاب. يرسم صُوره الكاريكاتيرية .. ببساطة وتلقائية. الألوان والظـــلال بينـــها تكامل وانسجام . الشخصيات المرسومة ، لا يوجـــد تناســـق بيـــن أعضاء الجسم . يضخم جزءاً واحداً فقط . رأس إفريقـــى بشـــعره المنكوش . صدر راقصة . كاب رجل عسكرى . قلم فى يد كاتب . أبديْت له إعجابى : هذه أعمال فنان صاحب موهبة حقيقية .

رد بانكسار : الفنان لا يرسم فى الطريق . لابد أن يكون له مرسم . رأيت أحدا يصلى فى الشارع ؟

شاب نحيل اسمه يوسف ، على مشارف الثلاثين . من المغرب. أعزب . علق حسام: المغربيات هنا كثيرات.

– سأتزوج مغربية من المغرب ، وليس من هنا .

تذكرت نادرة . هل ينطبق عليها ما قاله ابن بلدها ؟ لا . . لا . نادرة فتاة أخرى . أحسست قدرا من الأسى لا أعرف له مبررا .

خرجنا من الميدان عبر مخرج منحدر إلى أحد الشوارع الجانبية : ما رأيك فى المغربيات ؟

رد حسام : ما المناسبة ؟

– أسمع رأيك أولا .

– كل جنسية فيها الحسن والسيئ . أكثر المغاربة هنا ظروفهم صعبة . دخلوا بطرق غير شرعية . غير متعلمين أو مؤهلين لأداء وظيفة مفهومة .

– تعرفت مصادفة على فتاة مغربية . بعد مدة بدأت تتصل بى .

– كانت مشغولة برجل آخر . عندما أنهت علاقتها به، بحثت عن البديل.

شىء ما بداخلى هز مشاعرى . هذا ممكن ؟ لم لا ؟ لا . . لا . ستبدى لك الأيام. سألته : تعاملت مع إحداهن ؟

– ما الذى يضطرنى إلى هذا . الإسبانية واضحة صريحة . تريد منك الحب فى اللحظة التى تجمعكما . قد تستمر العلاقة أو تتوقف بحسب رضا كل منكما. بعد ذلك لا كلام . لا خصام . لا مشكلة .

ذهبنا لمشـــاهدة أحـــد عــروض الفلامينكـــو (Flamenco) . المسرح صغير . صالة العرض ضيقة . فتاتان نحيلتان رشيقتان من اليابان جلسنا بجوارهما . كلتاهما دون الخامسة والعشرين . تركـت الكرسى المجاور لحسام . أقدر على التفاهم بحكم إجادته للإسبانية . قال وهو يخلع الجاكتة ، ويضعها على ظهر الكرسي : أنت مسعد .

ابتسمنا . فابتسمتا . تعارفنا . تكلمنا . بعد خمس دقائق صرنـــا أصدقاء . نجحت الفتاتان بجدارة فى دورة مكثفة رفيعــة المســتوى للكمبيوتر . الجائزة رحلة شهر فى إيطاليا ، وإســبانيا ، وفرنســا . المرأة عندنا تكاد لا تعرف الكتابة على الكمبيوتر. فى اليابان تطـور صناعته .

قامت إحداهن تلقط صورا تذكارية بكاميرا صغيرة. لم أر مثلها من قبل . ثم قام حسام ليصور أيضا . غمزت له بعينـــى . جلـس مكانها. وجلست هى بجوارى. بدأنا نشرب " سنجريا " .. عصـــير فاكهة مع قليل من الكحول . الدهشة الكبرى عندما بدأ عرض تابلوه الفلامينكو . الضوء شاحب . مع أنغام موسيقى سريعة الإيقاع دخل ست راقصات وراقص . الغناء . الموسيقى . الرقـــص. الملابـس التقليدية لرقصة الفلامينكو . تأثير السنجريا . شعر اليابانية نـــاعم . ألمسه. يدى فوق كتفها . تداخلت الأضواء مع الأصوات والألوان . عمت النشوة كل كيانى . يا قلبى المعذب . هنا الحيـــاة ، وأنـت لا تدرى . فى الأسفار خمس فوائد . لا خمسون . . بـل خمسـمائة . الانسجام ليس فى ملابس الراقصات فحسب ، بل فـــى أحجامـهن أيضا. ضامرات . ناعمات . مبتسمات . رشـــيقات . بيضـاوات .

صوت الغناء فيه شجن . أقرب إلى تراتيل التواشيح الدينية عندنا . سمعت بعض كلمات عربية . الله . يا ليل . يا عين . آاه . الرقص أقرب إلى الرقص الغجرى . فؤادى المشتغل دائما اكتشف فكرة . كان يبحث عنها طويلا . المعاصرة فى الفن . تقوم على تطوير القديم وتحديثه . لا حداثة بلا جذور . الماضى هو الحاضر والمستقبل . الوحدة تولد من رحم متآلف . تتشكل من دوائر متداخلة. متسقة أحيانا . نشاذ فى أحيان أخرى . المهم أن تتكامل الألوان ، وتتناغم الظلال .

أيقظتنى اليابانية التى بجوار حسام : تأخذ سيجارة ؟

- هذا ما اشتقت إليه .

ازداد إيمانى فى هذه اللحظة بوحدة الوجود والفنون . البشر فى كل مكان . تحركهم مشاعر مشتركة . وتجمع بينهم أفكار متقاربة . حب الحياة وتذوق الفن . خصال مشتركة عند جميع الشعوب . كما أن الفنون وحدة واحدة : اللوحة - التمثال - الرقصة - الأغنية - اللحن... لغة هذه الأنواع المختلفة لغة عالمية . لا تحتاج إلى ترجمة أو شرح . الفن عقيدة ، يؤمن بها البشر فى القديم والحديث.. فى الشرق والغرب . من أجل هذا عشقت الفن . وأخلصت له.

انتهت السهرة الجميلة ، كأنها حلم فنى . تمنيت أن يمتد اللقاء . عرضنا توصيلهما إلى الفندق . قالت إحداهما : من تأتى من اليابان إلى مدريد وحدها ، لا تعجز عن الرجوع إلى الفندق .

علق حسام ساخرا : هؤلاء مبرمجات مثل الكمبيوتر ياصديقى.!

٩- الرغبة . . القدرة

دقات متواصلة من جرس التليفون . بين النوم واليقظة سـمعت صوتا رقيقا . لا أدرى لم نسيت صاحبته . رانيـة نعيـم . أخـذت تعاتبنى . لم أتصل بها كما وعدت . عندها لى هدية . . أو مفاجأة . دعوتها للقاء والعشاء .

تركت المحمول بجوارى على السرير . لولا هذا الجهاز العجيب لما تحققت سعادتى خلال الرحلة . ما الذى ذكرها بى ؟ شعور بالزهو ، يحتـوى أى رجل عندما يحس أنه مطلوب من امرأة. آدم كان معذورا حين استجاب لرغبة امـرأة . عصى الله . . وأطاع حواء . المرأة قادرة على أن تخرج الرجل من الجنة. كما أنها قادرة على أن تدخله فيها .

المرأة . . رمز متجدد الدلالة
مفتاح أسرار الحياة
الطبيعة . . أنثى خالدة
تجدد عذريتها كل حول
ترضى بالمقـدس
ولا ترفض المدنس
عطاؤها لا يتوقف
التوقف بداية نهاية
والنهاية بداية خلق جديد
الجفاف يشقق أديمها
والماء يحـييها

فتفتح ذراعيها وساقيها
لتجـرى المياه
وتتجدد الحياة
وتعـــــود
أسطورة خلق جديد .

اشتقت لرؤية طارق . أراه ، ولا أراه . أتمنى قضـــاء وقـت طويل معه ، مثلما كنا أيام الصبا والشباب . لم أجد طارق - كمـــا توقعت . سألت بيلار . ذكرت أنه رجل أعمال . لا يجد وقتا للراحة والنوم . المكسب يغرى بمواصلة العمل . العمل يوســع الدائــرة . كلما اتسعت زادت المسئولية . لاحظت أن الناس كلهم مشــغولون ، كأنهم قطع فى آلة ميكانيكية . البشر يسيرون فى خطوط طولية . لا أحد يلتقى بالآخر أو معه . تكاد تعـــدم هنـــا الـــدفء الإنســانى ، والروابط العائلية . ربما يعوضون ذلك بالمبالغة فـــى الاســتهلاك والتمتع بكل أشكال اللهو والملذات . انتبهت على صوت بيلار :

- أفتقدك منذ مدة .
- تعرفين البيت ، ورقم التليفون .
- نسيت أنى امرأة يا رجل ؟
- آسف يا عزيزتى .
- لا تشغل نفسك يومى العطلة .
- شكرا يا عزيزتى .

قبلتها وخرجت صامتا . تعجبت من كثرة المفاجآت التى ينبغــى أن أستعد لها . القدر أراد أن يعوضنى عن أيام الجوع والجفــاف .

ماذا تريد بيلار يومى السبت والأحد؟ ما المفاجأة التى أعدتها رانية هذا المساء ؟ نادرة . . يهتز قلبى عند تذكرها . يا رجل كن عاقلا . لم تأت إلى هنا من أجل الحب . أرح بالك . انس هذه المشاعر . تجاوزت مرحلة الرومانسية .

طلبت من رانية أن نتقابل فى فندق ألبرتو أجويليرا (Al berto Aguilera) . تعمدت الابتعاد عن فندق الأميرة .

ذهبت قبل الموعد . الرجل المتحضر. ينبغى أن ينتظر – رغم أنه لا يوجد هنا فرق بين رجل وامرأة . أشاهد بعض اللوحات والمعروضات فى صالة الاستقبال . أتأمل الداخلين والخارجين . يخفق قلبى عندما يرى امرأة جميلة . تذكرت قول لورد بيرون : "أتمنى لو تجتمع نساء العالم فى واحدة ، فأقبلها وأستريح " . بيرون هذا رجل مغفل . كل فاكهة لها طعم خاص . لا يستوى رحيق زهرة وأخرى . لا .. لا . النساء هكذا أحسن – رغم أنف بيرون .

لم أعرف أهمية المرأة . . ولا قيمة الحب ، قبل أن أصل إلى مدريد .

فى الثامنة مساء أقبلت نحوى . كدت لا أعرفها . هناك فارق كبير بين رانية الأولى والثانية . تحولت البساطة الهادئة إلى أنوثة متوهجة . احتضنتنى بقوة . كأنى أول رجل تلقاه. بجوارها جلست. تأملت . بياض وجه الشآمية . زرقة العيون . الشعر الفاحم المسترسل . بين النحيلة والبضة . لا يشتكى قصر منها ولا طول . فستان وردى . يذكرك بزهور الربيع . ابتسمت ، فظهر لؤلؤ خلف شفاه مكتنزة . تذكرت قول وشاح ، نسيت اسمه :

ضاحك عن جمان

سافر عن بــــدر

ضاق عنه الزمان

وحواه صــدرى

بيرة . عشاء . نبيذ . ثرثرة حول الحياة فى مدريــــد . تمــزق العالم العربى . أفرطت فى شرب البيرة والنبيذ .

- أطلب لك قهوة ؟

- لا أريد أن أفيق .

جاءت هنا سنة ١٩٩١ ، لتحضر مؤتمر مدريد حـــول قضيــة فلسطين . أخذت تتردد مرات. بعدها قررت الإقامة وطلب الجنسية. مغامرة . . مقامرة . هى لا تدرى. التقت بصحفى جوال . أنســت إليه ، لأنه سورى من بلدها . تزوجها . هدفه الوحيد التمتع بفــض بكارتها . اختفى . تركها معلقة . ليست متزوجة . . ولا مطلقـــة . تحاول الحصول على الجنسية الإسبانية . لا تفكــر فــى العــودة . أردت أن أغير الحديث . خشيت أن تبكى فأبكى معها .

- أين الهدية التى وعدتنى بها ؟

- مجموعة من الجرائد والمجلات العربية ، حتى تعـــرف أخبار بلادنا العزيزة.

- لماذا لم تحضريها معك ؟

- كومة كبيرة . فى حاجة إلى حمار . . أو حمال .

- ما الفرق ؟

- الحمار بعثى . . الحمال اشتراكى .!!
- مع أيهما أنت ؟
- أنا . . أنا مع الحرية فى مدريد .
- أرجو لك حياة طيبة هنا .
- أتمنى أن أرقص رقصة زوربا اليونانى . ترقص معى ؟
- كنت أتمنى .
- كان ينبغى أن تتعلم الرقص .. قبل أن تأتى .
- فى المرة القادمة .
- لماذا تريد العودة إلى مصر ؟
- من أجل أمى . . ومن أجل الفن . النخلة لا تثمر بلحا إلا فى أرضها .
- خرافة قديمة . مازلت تؤمن بها ؟

طلبت قهوة سادة ، حتى أفيق أنا وهى. الثانية عشرة مساء. عندما نظرت فى ساعتها : ألا تأتى معى ، لتأخذ الجرائد ؟

امرأة حزينة . قرأت معانى الرغبة فى عينيها . لم أشأ أن أستغل لحظة ضعف تمر بها . ما فائدة الجرائد ؟ تزيدنى هموما على همى . يكفى ما أنا فيه . وعدتها أن نلتقى مرة أخرى . لا أدرى . هل أقدر أن أكون بارا بهذا الوعد أم لا ؟ قالت وأنا أودعها عند باب الفندق : أحتفظ لك بالجرائد ؟

- تعرفين جيدا المكان ، الذى ينبغى أن توضع فيه . . !

فى طريق العودة إلى البيت – ماشيا – تذكرت طارق . تمنيت أن يكون معى . حدثنى كثيرا عن عذابات المغتربين العرب، وما

يواجهونه من مشكلات – بحثا عن وجبة دسمة . . فى مناخ نظيف.
إذا كان الرجال يقدرون على تحمل الآلام ، حتى لـــو نـــاموا فـــى الحدائق أو على أرصفة الشوارع ، فماذا تفعل النساء المـــهاجرات – وبعضهن آنسات فى عمر الزهور – فـــى هـــذه الأحـــوال . . ؟ !
أشفقت على رانية . تركتها تعود وحدها . لماذا فررت منها . . مـــع أنى لا أفعل ذلك مع بيلار . . ؟ !

يـــــا قلـــبى
حين تريد الفرح
ويأتى الأمر بالعكس
لا تحـــــــزن
فالقدر يدخر لك
حـــظا أوفـــــر
فى منـاسبة أخرى .

١٠- بوابة طليطلة

التقيت بنادرة فى الفندق نفسه . هى التى رغبت . ابن القـــاهرة وفتاة طنجة يلتقيان فى مدريد . مصادفة . لا أدرى لم ساقها القـــدر إلى ؟ تجربة فنية . . إن لم تكن إنسانية .

- كيف حالك ؟
- لا باس . الحمد لله . وأنت كيداير؟
- ما معنى هذا ؟
- عربية فصيحة : كيف تدور أحوالك . بالمناسبة أنا عربية. لست بربرية .
- كلنا أخوة .

ردت مبتسمة : وخا . وخا .

- من أنت ؟
- فتاة وحيدة جاءت تدرس فى الجامعة. الحياة هنا أعجبتنى. قدمت الأوراق للحصول على الجنسية. فى انتظار دورى.
- تعبت يا نانا ؟
- من نانا ؟
- اسمحى لى أن أدللك بهذا الاسم .
- لم يطلقه على أحد من قبل .
- أريد أن يكون لك عندى اسم خاص .

صاحت بفرحة لم تكن متوقعة : كنبغيك ، ونموت عليك.

- صادفت متاعب هنا ؟

- لا تعد ولا تحصى .
- احكى .
- لحظة فرح . لا تعكرها بذكريات حزينة . من الأمور التى تعلمتها هنا . حين يلتقى اثنان . المهم هو الإنسان داخل كل منهما .
- أنت عظيمة يا نانا .
- لا تضحك على . تخلينى معصبة ؟
- لماذا يا حبيبتى ؟ لا أدرى كيف نطقت بهذه الكلمة .
- أنت داير تسألنى كيف القاضى. ولا تريد أن تقول شيئا عن نفسك .
- رجل بسيط . فنان طموح . إنسان يتمنى الخير للجميع .
نظرت إلى ملابسها ذات اللون الأزرق الغامق : بلوزة سوداء برقبة. بنطلون جينز أزرق . شعرها ليس مسترسلا مثل المرة السابقة . أفك هذه الضفيرة يوما ؟
أمسكت كوب البيرة . سألت : أحببت من قبل ؟
- ربما . . أيام الصبا والشباب .
- بصراحة . المصاروة حبابة . يحبون ويحابون . سمعتهم طيبة فى عالم الحريم .
- من أخبرك . . يا شقية ؟
- ثقافة عامة . الجنس هنا الموضوع المفضل عند معظم البشر .
هذه الفتاة تبدو بريئة . . وصريحة . أول مرة أصادف فتاة بريئة وجريئة . لا كبت . . لا خوف . لا عقد . طلبت منها أن

نمشى فى الشارع الكبير . سرنا . وصلنا ميدان إسبانيا . يدى فى يدها . الزحام حولنا. لا أراه . ذهبنا نحو الحديقة . تمثال دون كيشوت على فرسه ، وسانشوبانزا تابعه على حمار . تذكرت حكاية سيرفانتس العظيم . تحول أبطال الحكاية إلى تماثيل . وقفنا فى صمت وسط الأبراج العالية. لا أرى نجما فى السماء . قمر بجوارى على الأرض . قبلتها فى الخد . فى الفم . أحسست نشوة ، لم أشعر بها مع امرأة من قبل. فى إسبانيا . افعل ما يفعله الإسبان . عدت إلى الشقة . لا يزال طعم القبلة فى فمى ساخنا . تذكرت – وأنا أغير ملابسى – هذه الأبيات **لابن عبدربه الأندلسى صاحب "العقد الفريد"** :

يا لؤلؤا يسبى العقول أنيقا
ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
درا ، يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة
ما بال قلبك لا يكون رقيقا

استعرت منذ أيام كتاب " **طوق الحمامة** " **لابن حزم الأندلسى** من الدكتور حسام. بدأت أقرأ :

" الحب – أعزك الله– أوله هزل ، وآخره جد . دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة . وليس

بمنكر فى الديانة ، ولا بمحظـور فـى الشريعـة .. "

أدركنى النوم . " **طوق الحمامة** " فى يدى . وضعته بجـوارى على السرير . إحساس بالراحة والرضا . جعلنى أستغرق فى سبات عميق . كأنى – أول مرة . حلم أم كابوس ؟ معظم أحلامى أنسـاها قبل أن أغادر السرير . تفاصيل هذا الحلم واضحـة المعـالم فـى مخيلتى :

مدة طويلة . لم أر أبى فى المنام
كل الأمور – وإن عظمت – إلى نسيان
تغيرت هيئته ، التى كنت أعرفه عليها
الوجه أبيض مشوب بحمرة
شعر الرأس واللحية كثيف
اشـتعل فيهما الشـيب
قامته أطول كما رمسيس الثانى
عيناه زائغتان. تبحثان عن شىء مفتقد
يعبر نهرا بصعوبة
يمضى قـدمـا
يعانى من أمر ما
يبحث عنى أمامه ، وأنا خلفه
أنادى .لا يسمع
أمشى . أجرى
بعد معاناة . لحقت به
حين أبصرنى . كاد ينكرنى

لا يبدو عليه الرضا أو السرور
بابا .. بابا . أنا كارم . ابنك
نظر إلى – من عل متجهما :
لماذا تركت أمك وحدها ..؟ !

صحوت حيران مندهشا . شربت كوب ماء . وقعت قطرات على طوق البيجاما . قلت : اللهم اجعله خيرا .

هيئتى الوقورة ، وحركتى المحسوبة ، تجعلانى أبدو رجلا متواضعا ، بسيطا . الفنان المتمرد فى أعماقى لا يهدأ . لا يستقر على حال . أتحرك أحيانا مثل نسمات الخريف . أحيانا مثل عواصف الشتاء الممطرة . نحلة تطير هنا وهناك . العسل اللذيذ رحيق زهور ، لا تعد . أهوى الزهور . . كل الزهور . عسلا هل أقدر ؟

إلهى الذى فى السماوات
إله جميع البشر والكائنات
دلنى على الطريق
أنا الغريق
أكاد أفيق
يا نور النور
لا تجعلنى أدور
فى بحور الحور .

علاقتى مع بيلار أفهم حدودها . قصتى مع نادرة . . لا أدرك مداها . بين العقل والقلب أروى عواطفى العطشى. من أجل الفن

والحب . الفن أسطورة. والحب حكاية .

طارق . . صديقى العزيز . جئت إليك طائرا . لم تأت إلى ماشيا . أراك الآن طارق الإسبانى. تاهت كثير من ملامح طارق المصرى. تلك هى الحياة يا صديقى.

فى العاشرة من صباح السبت . انتظرت بيلار أمام البيت . دائما تصل فى موعدها . سيارتها الحمراء الصغيرة . أنيقة مثلها . سلمت بقبلة على الخدين : لم أكن أعرف .

– السيارة . . لا نستخدمها إلا فى الأجازات .

مشينا نحو طليطلة (Toledo). العاصمة القديمة لمملكة القوط. عاش فيها المسلمون مدة طويلة . ثم كانت أول مدينة أندلسية يفقدونها . بعد أن استولى عليها ألفونس السادس. وهى الآن مقر الرئاسة الدينية للكنيسة الإسبانية .

فى اتجاه الجنوب الشرقى . . أمتع ناظرى . بيلار بثوبها البنفسجى الهادئ . وجهها الجميل . قدها الرشيق . مظاهر الخضرة والجمال . القرى مدن صغيرة . الطرق منظمة . . معبدة . لا حفر. لا مطبات . عند كل مفترق لافتة ، تدل على الأماكن.

– أنت عظيمة ورقيقة يا بيلار .

– أنت ضيف عزيز على بلادنا الجميلة . كما أنك صديق طارق .

– أفتقده كثيرا .

– الصديق ينبغى أن يلتمس العذر لصديقه .

وصلنا إلى بوابة طليطلة التاريخية . التى أسسها كارلوس

السادس لحماية المدينة . مشينا بالقرب من نـــهر تـــاجو . المدينـــة لازالت تحتفظ بطابعها القديم فى المبانى والشـــوارع المتعرجـــة . الطرق الضيقة المنحدرة والصاعدة . المنازل الصخرية العتيقـــة . بقايا الأسوار ، والأبـــراج ، والمعـــابد ، والكنـــائس، والحانـــات ، والأبواب القديمة . القنطرة العربية . الكاتدرائية العظمـــى . تحتـــل مكان المسجد الجامع القديم : تريد أن نراها ؟

قلت وأنا أمسك يدها : بكل سرور . تمنيت أن أدخـــل كنيســـة يوما . صعب أن أفعل هذا فى مصر .

- اعمل فى إسبانيا ، ما لا تقدر عليه فى مصر .
- هذه هى الحقيقة . يا عزيزتى بيلار.

عجيب شأن هذه المرأة الذكية. أرشدتنى إلى مسألة حـــيرتنى. "اعمل فى إسبانيا، مالا تقدر عليه فى مصر. " أنت لطيفة ، وحكيمة يا بيلار.

كنت منبهرا بمبنى الكاتدرائية ، ومحتواها. القاعـــات الكبـــيرة. النقوش المذهبة الكثيرة . الصلبان . التيجان . الآنية الذهبية . صور العائلة المقدسة . . وبعض التماثيل الخاصة بها . لوحـــات الفنـــان دومينكو إل جريكو وغيره . قاعة الثياب المقدسة .

ذهبنا بعد ذلك إلى كنيسة مسيحية ، ومسجد إسلامى . . فى موقع واحد . يسمى كنيسة النور . رأينا المعبد اليهودى . الدين للديان . لا أدرى لماذا يتصارع البشر حول الأديان . . ؟ ! الله محبة . الدين أخوة . الفن رسالة.

بين عبق التاريخ ، وعطر الأديان ، وجمال الفن – أحس نشـــوة

صوفية . تأخذني إلى أفق بعيد . تداخلت الرؤى . أنا لم أعـــد أدرى من أنا . أحتضن بيلار . أناجى النفس الهائمة . المحلقة بين الكثيـف واللطيف :

يا رب كل حكيم ورسول . .
وصلت إلى منزلة
لا ألتفــت فيـــها
إلى ما يغضب أو يرضى
البحث عن الحقيقة والمحبة
هما الغاية التى تنبع
مــن داخــلى أنـــا
أنـــا عبدك التائـــه
يـــا إلهـــى . .
الخلق جميعا عبادك
واقفين عند بابــك
وحد بينهم فى رحابك
يهودا ومسيحيين
كافرين ومسلمين
أنت وحدك القادر
أنت الأول والآخر
الملك لك . . الحمد لك
المجد لله فى الأعالى
وفى الناس المسرة .

بعد مدة. أحسست دواراً . تحوّل إلـــى رعشـــة . لا أســتطيع مواصلة الجولة . تصحبنى إلى فندق كارلوس (Carlos) .

– كيف ترتعش وشمس الربيع مشرقة ؟

– أحسّ تعباً . لا أعرف سببه .

لا أدرى ماذا حدث . أفقت بعد مدة علي سرير الفندق . بيـــلار تغطينى بالملاءة والبطانية : أحضر لك طبيباً ؟

– غطينى . دفئينى . برودة تحوّينى . بيلار لا تتركينى .

هذه الفتاة تصغرنى بخمس عشرة سنة . ومع ذلك أحسّ أنــــها تعاملنى مثل ابنها الوحيد . تقرأ ما فى عينىّ دون أن أتكلم . تعرف بالضبط ما يناسب كل لحظة . ساعة سويسرية. لا تقدّم ولا تؤخر . أغلقت ستائر الغرفة . أضاءت أباجورة جانبية . تمددت بجـوارى . جذبت الملاءة البيضاء .

١١- وادى الحجارة

صحبنى حسام – بتوجيه من طارق ، الذى سافر فـــى رحلـــة عمل مفاجئة إلى جنوب شرق آسيا .

قال وهو يقود سيارته بهدوء: يجب أن تشاهد أماكن مختلفـــة. مدريد ليست كل أسبانيا . ولا أجمل مدنها . كما ينبغـــى أن تـــزور مدن الأندلس العربية .

– تقصد الفردوس المفقود .

– لم لا تقول الفردوس الموجود . إسبانيا بلد لا يتنصل مـــن ماضيه الإسلامى . ويحتفى بآثاره المادية والتاريخيـــة والأدبيـــة . المهاجرون العرب يشكلون أكبر جالية وافدة . حوالـــى مليونيـــن . يلقون عناية وخدمات . لا يجدونها فى بلادهم .

– من الأفضل أن ننسى عادة البكاء على الأطـــلال والمجـــد القديم.

ما زالت السيارة تسير. السحب تتكاثر. الشـــمس تظـــهر .. وتختفى .

نظر إلى بحزن وحسرة : هذا هو الفـــارق الجوهـــرى بينـــهم وبيننا. سبب تقدمهم وتخلفنا .

– هو ؟

– فى الغرب ينظرون إلى المستقبل، وعندنا ينظـــرون إلـــى الماضى.

أمطر الجو فجأة : سوف ترى أن القرى مدن صغـــيرة . فيـــها

حضارة . . ومدنية. . وآثار سياحية . يمكن أن تقول إسبانيا كلـــها مناطق سياحية . وهذا سر ازدهار السياحة.

وادى الحجارة (Guadálajara) مدينة قديمة . تبعــد مســافة قليلة شرقى مدريد . فى الطريق إلى سرقسطة . لبثت تحــت حكـم المسلمين زهاء ثلاثة قرون ونصف . تحت مظلة المطر - ذهبنـــا نتجول فى شوارع مدينة قديمة الطراز . لا ينقصها شىء يوجد فــى مدريد ، حتى مصارعة الثيران . توجد بقية آثار قديمة على مقربــة من كنيسة " سانتا ماريا ". مثل القنطرة العربية ، وبرج العلميـــن ، وبعض الأسوار الأندلسية . اشتد نزول المطر . احتمينا فــى بــار صغير غير مزدحم.

قال : تبدو متجهما.

قلت ساخرا : تذكرت قول امرئ القيس " قفا نبك مــن ذكــرى حبيب ومنزل ."

- لا تبك على ما فات ، وإنما على ما هو آت.

- ماذا تقصد؟

- المستقبل المجهول الذى ينتظر المنطقة العربية ، إذا لم تضــع خطة علمية لمواجهة تحديات عصر العولمة.

- كيف ؟

- العولمة محاولة تسييد القــوة الاقتصاديــة والتكنولوجيــة والسياسية والثقافية والإعلامية. هذه القوة الطاغية ، هــى الأســاس الذى يشكل النظام الدولى الجديد. وهذه القــوة لا تملكــها ســوى الولايات المتحدة ، لذلك فإنها تحاول أن تسخر العولمة لصالحــها .

المشروع الأمريكى الجديد حوت . يريد أن يسير العالم كما يريد ، ويأخذ الغنائم كلها. ولا بأس أن يرمى بعض الفتات لحلفائه .

- المنطقة العربية التى غيروا اسمها إلى " الشرق الأوسط "، تحتل عناية كبيرة فى المشروع الأمريكى بمساعدة إسرائيل .. وبعض دول أوربا . للأسف الدول العربية لا زالت تتعامل بشكل قبلى / قطرى . مع أننا فى عصر التكتلات العملاقة .

- المنطقة العربية يا كارم ، يمكن أن تضع خطة مدروسة لمواجهة التحديات ، وأن تنشط دور الجامعة العربية ومؤسساتها.

- عندى قدر من التفاؤل .

- ولدى قدر من التشاؤم .

- يا رجل الدنيا تمطر .. المطر خير .

- لكن لا يا صديقى ، الدنيا تمطر فى إسبانيا . وليس فى أى بلد عربى .

فى أثناء العودة توقفنا عند مدينة " قلعة هينيارس" (Al Calà de Henares) . وهى أيضا مدينة عربية قديمة . لا تزال بها بعض الآثار العربية . بقيت صامدة لم يؤثر فيها الزمن. وهى مسقط رأس الأديب ثيرفانتس ، وبيته يعد مزارا سياحيا. بالقرب منه مسرح باسمه . كما يوجد أقدم جامعة فى إسبانيا . تأسست سنة ١٤٩٩ . ومنزل عربى قديم - يرجع تاريخه إلى سنة ١٤٨٣ - تحول إلى مستشفى . هناك أيضا كنيسة كبيرة ، ملحق بها دير ، لتقديم بعض الخدمات الاجتماعية بسعر زهيد، لتشجيع الناس على زيارة الكنيسة.

هذه المدينة الصغيرة القديمة بشوارعها الضيقة ، وحاراتها المتعرجة ، منسقة بشكل جميل . الأشجار ، الأزهار ، الطابع المعمارى القديم والحديث ، التحف ، المنتجات الشعبية ، تجذب السواح من كل الجنسيات . ترى فيها الآثار القديمة بجوار المنشآت الحديثة . هنا يتآلف القديم والجديد فى تنسيق بديع . يدل على وحدة تاريخ الأمة.

يبدو لى أن الوظيفة الوحيدة التى تصلح لى فى هذه الحياة أن أكون فنانا لا غير . أتأمل . أنفعل . أرسم . وقد أخذت – فى أسبانيا – جرعة كافية من الإلهام والراحة. سأصور فى المرحلة القادمة أصداء الحياة المعاصرة على البشر . الصراع بين الإنسان والحياة ، هو المضمون الذى ينبغى أن يتشكل فى أى عمل فنى . ندمت لأنى لم أحضر أدوات الرسم معى.

أيقظنى صوت التليفون . توقعت أن أسمع طارق . جاءنى صوت نادرة . أخبرتنى أن عندها مفاجأة . بعد نصف ساعة كن مستعدا . الساعة تقترب من الخامسة مساء. ما تكون المفاجأة ؟ !.

ارتديت ملابس الخروج استعدادا للقاء فتاة جميلة. ساقها القدر إلى .غريبان يلتقيان فى بلد غريب . الغربة لم تعد فى المكان. الغربة داخل الإنسان . اشتقت إلى أمى . لم أبعد عنها مثل هذه الفترة . قلب الأم دائما يعذر ويغفر . سامحينى يا أمى.

أنتظر صوت التليفون فى لهفة . جرس الباب يدق . من جاء فى اللحظة التى أستعد فيها للخروج . فتحت الباب . لم أصدق

عينىّ. مفاجأة مدهشة . كانت هى .. هى ..

- سنقف عند الباب ؟

- تفضلى يا نانا .

تلك هى المفاجأة . تزورنى فى البيت دون مقدمات. نادرة شكلاً ومضموناً . الفتاة العربية تأخذ وقتاً. يعادل رحلة ابن بطوطة، حتى تزور من تحبّ . الدنيا تغيرت . هذه فتاة من عصر العولمة . تغزو من تحبّ فى عقر داره . من قال إنها تحبك . الخيال فى الواقع ، ليس مثل الخيال فى الفن. المهم أنها جاءت. هذا يكفى ..!!

- مفاجأة سعيدة .

تعمدتُ ألا أجلس بجوارها. أمامها نظرت إليها . تلبس بنطلون جينز أزرق ، بلوزة حمراء برقبة ، بالطو رصاصى . خلعته بعد دخولها .

- توحشتك . كنبغيك . قلت نمرّ عليك.

نقطع الوقت بالثرثرة . تحدثتْ عن تعبها فى العمل والجامعة . تدرس على نفقتها الخاصة . المبلغ القليل الذى ترسله الأسرة لا يكفى . أصحاب العمل – وبعضهم من العرب – يعاملون أمثالها معاملة صعبة . الحصول على الجنسية ، شرط لأىّ عمل مريح ومجزٍ . سألتها إن كان يمكن أن أقدم أية مساعدة .

- يكفى أن نتكلم معًا . هنا لا يجد الإنسان من يتحدث معه. البشر . أدوات آلية . المال وفير. كل واحد يسعى لأخذ قطعة من التورتة الكبيرة .

– هذا ما قاله طارق ؟

– من هو ؟ .

– صديق .. من أجله جئت إلى إسبانيا .

– لم تحدّثنى عنه.

– لم تأت مناسبة . أود أن أتعرّف عليك.

– تسمع إلى الغناء المغربى؟

– ليس كثيراً . ذوقى كلاسيكى فى الطرب.

بدأت تغنى بصوت عذب النّبرات رقيق :

عبّـــاسْ أيـــا عبـــاس

لا تدّيها فِـ كْلام الناس

راه عارِفنى كِنبْغيــك

كنحبك ونمـــوت عليك

حين توقف فمها عن الغناء أخذته بين شـــفتى . نـــار الشـــوق. تعطى القبلة طعماً آخر. تفاح مشوى على نار هادئة. عدت مكانى . يبدو أننى أغضبتها . نظراتها تستنكر . عجيب حال تلـــك الفتـــاة . أقبّلها فى حديقة عامة فلا ترفض . يحدث الأمر نفسه فـــى صالـــة مغلقة ، فتحتج .

وضعت خدها الأيسر فوق يدها: كنت مترددة فـــى الحضـــور. الرجال كلهم هاكذا.

– أرجو أن تقبلى أسفى .

ليس من عادتى التهوّر . ماذا حدث لك يا كارم ؟ لو غضبتْ .

خرجت ولم تعد . ربما تخسرها . . ربما . .

- جئتك فرحانة بذاف . تسلمت راتبى بعد توقف شـــــهرين. اشتريت لك زجاجة عطر. قامت وأحضرتها من الحقيبة.

- كيف أشكرك ؟

- تقبلني فى الخد بهدوء.

ماذا سمعت ؟ يبدو أننى أحلم .نامت على كتفى . قطة وديعة .

- أنا فتاة مسكينة . عاملنى برفق .. أرجوك .

قرأت كثيرا من الروايات والقصائد الرومانسية . لم أتعلم منها.. ما أتعلم من حسناء طنجة .

سكتت فترة .أتحسس وجهها . دموع خرساء. نظرت إليها فى حيرة . ماذا أقول لها ؟

ذهبت إلى الحمام . غسلت الوجه . استردت بعض هدوئها :

- أقول سرا . لم أحدث به أحدا غيرك . كنرتاح معاك.

- قولى يا حبيبتى.

- الحب صعيب . يكفى أن نكون أصدقاء.

- قلت مشجعا : وخا . وخا .

كانت تعمل فى بار يملكه لبنانى . رآهـا تـاجر عربـى مـن فلسطين - لا تعرف فى أى شىء يتاجر . . ! أخذ يطاردهـا . . شهرا بطوله . يدخن الشيشة . ينظر من خلف الدخان المتصـاعد ، وهو يحتسى القهوة المرة. الكلام المعسـول . الـهدايا البسـيطة . كلمات الإعجاب . اللهفة . الشفقة . الغيرة. فى حوالى الخمسين مـن

عمره . متزوج وله أسرة . خدعها باسم الزواج العرفـــى . فقــدت بكارتها بورقة مزيفة . تمننه زوجا وأبا لطفــل. زاغ كمــا يــزوغ الثعلب . القبلة المفاجئة. ذكرتها بموقف الاغتصاب ، الـــذى تــرك لديها جروحا نفسية عميقة .

- بعد هذه المحنة بمدة قابلتك . فقدت الثقة فـــى الرجــال ، لذلك تأخرت فى الاتصال بك .

مشهد حزين فى حكاية مأساوية طويلة ، تعكس بعض آلام المغتربين فى الخارج . فجعت . حزنت من أجلها . ماذا أقول ؟ الكلام فى بعض المواقف لا يجدى .

- خدعنى بأكذوبة الزواج العرفى . ما رأيك فيه ؟

- حاولى أن تنسى . لا فائدة من تذكر الأوجـــاع القديمـــة . المهم أن تستوعبى الدرس . تفهميه جيدا.

تذكرت قول السيد المسيح " من كان منكم بلا خطيئة ، فليرمـــها بحجر " .

قلت وأنا أدلك يدها بحنان: الشجرة قد تهزها الريـــح. لكـــن .. المهم ألا تسقط.

- بعد هذا . . يمكن أن نكون أصدقاء .

- بل من أجل هذا ، سنكون أصدقاء.

- بغيت نطور علاقتنا فى النور.

- أنت مدهشة يا نانا . نتناول الغذاء فى الخارج .

رغبت فى أن تخرج دائرة من الذكرى المؤلمة . أكلنا . شربنا.

مشينا فى الشارع . افترقنا على وعد باللقاء .

فتحت الباب . وجدت زجاجة العطر . قررت أن أحتفظ بها للذكرى . ارتميت على السرير . اعترفت قصدا أم مصادفة ؟ لماذا تحمل نفسها مالا تتحمله عذ راء . كثير من الفتيات . يتعرضن لمثل هذا الموقف . لا أعتقد أن بعضهن يجدن شجاعة، لتعترف أمام رجل . حيرتنى يا نادرة . . لماذا اعترفت لى ؟ المرأة لا تعترف لرجل إلا إذا أرادت أن تبدأ صفحة جديدة معه. موقف صريح . يحتمل الرفض أو القبول . لكن على بينة . . فى النور. لا غش . لا كذ ب . الحرية تطهر الإنسان من عادات رد يئة ، يمارسها فى الظلام.

١٢- واحة الأمان

جاء طارق مساء اليوم التالى ، حمل إلى بعض الفاكهة وزجاجتين من النبيذ : النبيذ الإسبانى أجمل نبيذ فى أوربا.

- أتيت من أجلك يا طارق . لم أنت بعيد عنى ؟

- جاءتنى أعمال كثيرة منذ جئت . دائما أتفاءل بك .

أصر على أن أذهب معه إلى البيت . هذه رغبة كارمن . لامت زوجها كثيرا ، لأنه لا يسأل عن صديقه . قضيت سهرة أسرية دافئة . ذكرتنى بمصر . . وبأمى . . وبالمجلة . . والأصدقاء .

قالت كارمن وهى تقدم طبقا من الأناناس : تذهب غدا مع طارق ، لمشاهدة مباراة كرة قدم نادي ريال مدريد ؟

- هذه عادة لا أمارسها .

علق طارق : فرق الكورة . تقوم بدور من أدوار الأحزاب السياسية بالنسبة للحكومات والجماهير . ميزانية نادى ريال مدريد أكبر من ميزانية حكومة مدريد . ومدير النادى أكثر أهمية من رئيس الوزراء . تصدق هذا ؟

- كل شيء جائز فى عصرنا .

منذ كنا صغارا . طارق يهوى لعب الكرة والرحلات . أنا مغرم بالقراءة والرسم . لا يزال كل منا محتفظا ببعض عاداته . كم أحب هذا الصديق العزيز . . وكم أنا معجب بقصة كفاحه.

عصانى النوم . مع أنى تناولت عشاء دسما عند طارق . فكرت أن أخرج إلى الشارع . ترددت . الساعة قاربت الواحدة صباحا .

تذكرت نادرة وأزمتها . لماذا تعاطفت معها . . ولم أفعل هذا مع رانية – مع أن المشكلتين من نوع واحد؟

الفتاة العربية تكافح مثل الرجال . لم تعد أنثى مستكينة . قد تصادفها بعض الأزمات . لكنها قادرة على مواصلة السير . ركوب الأخطار ، لا ينقص الأعمار . يزيد الإنسان قوة وعزيمة من أجل أن يحقق ما يريد . قررت أن أتصل برانية . وأن أطمئن عليها . رانية امرأة ناضجة . نادرة . . فتاة قليلة الخبرة.

اتصلت بها . أصرت أن أزورها فى البيت . تريد أن تريح معدتى من أكل المطاعم والفنادق . مسكنها صغير ومنسق . حجرة تقوم مقام شقة (استوديو) . فتح شهيتى الكباب الشامى، الحمص الحلبى ، التبولة الخضراء. ونحن نتناول الشاى أحسست عطرها ، ينفذ من أنفى إلى نخاع ظهرى . سألتنى: من عادتك أن تستريح بعد الغداء؟

أجبت مترددا : أحيانا . . لكن . .

– البيت بيتك . تفضل .

عدت من عند رانية سعيدا . شعرت برضا وراحة . صارت أكثر تماسكا وصلابة . سألتها : أرسل لك ورقة الطلاق ؟

– أعتبره ميتا بالنسبة لى . لم أعد أفكر فى هذه الحكاية السخيفة . علمت من المحامى أننى أحصل على الجنسية الإسبانية قريبا .

– أنت سعيدة يا رانية ؟

- سعيدة أم غير سعيدة ؟ سؤال غير واقعى. المـــهم أننـــى أعيش .. وأننى متفائلة.

- أودّ أن نظل أصدقاء فى فترة إقامتى هنا.

- هذا ما أحرص عليه بالفعل . بالمناسبة . . أول رحلة لـــى بعد الحصول على الجنسية، تكون إلى مصر .

- أول من يستقبلك فى المطار .

الدنيا بحر بلا شطئان
واحـــة الأمـــان
أن يجـد الإنســان
مــن يعطف عليــه
يميــــل إليـــــه
يستريح على صدره
يبوح – مختاراً – بسّره
ساعتها تزول الأزمة
ترتســم البســـمة
علـــى الشـــفاة
فتحــلو الحــياة
يا أيها الإنســان
حاول أن تكون واحة أمان
فى أى زمـــان أو مكـــان.

فى مساء يوم جمعة ، لا أنساه . مشيت وحدى فـــى " الشـــارع

الكبير " . من أهم شوارع مدريد التجارية والسياحية . أن تسير بلا هدف .. أمر ممتع . تسرع الخطى . تمشى على مهل . تنظر إلى تمثال . تجلس فى حديقة . تتأمل السائرين . تغار من العاشقين. أنت حر . . ما لم تضر . مارست طفولة الفنان وتمرده . وقفت أتأمل إحدى واجهات محل ملابس . لا أجيد الغسيل أو الكواء . أشترى مجموعة من القمصان . فى تلك اللحظة شاهدت امرأة . ليس الجمال هو ما جذبنى . رأيت الجمال فى كثير من مظاهره وأنواعه. إنها هى . . هى . . هى . المرأة المجهولة . التى زارتنى فى المعرض . نقطة التحول فى مسيرتى الفنية. من أجلها فضلت إسبانيا على غيرها. لابد أن ألحق بها . أكلمها . نتحاور . أعرف منها فى مدريد ، ما لم تصرح به فى القاهرة. نسيتها . ظننت أنى لن أراها .

تسرع . أسرع خلفها . مالت نحو شارع جانبى . هنا يمكن أن أتأملها فى هدوء. أحاورها على مهل . صرت على بعد خطوة واحدة . أتأكد من وجهها قبل أن أتكلم معها. فرقت بيننا إشارة مرور حمراء. ألوم نفسى. عدوت وراءها. أين هى .. أين ؟ هنا .. ربما . أذهب لا أجدها. ربما .. ربما .. هناك . أروح بلا جدوى . ضاع من قدمى الطريق . عرق حار يتفصد من جبهتى ورقبتى .

استلقيت على أول مقعد خشبى ، يصادفنى فى ميدان إسبانيا . أجفف عرقى . أبلع ريقى المر . أسترد هدوء رئتى . أستعيد توازن نبض قلبى .

أفتش فى الذاكرة عن طيف امرأة . ليس لها عنوان . حقيقة أم رؤيا فنان ؟ ! لا أعرف ما يدور فى قلوب من أعرف من النساء . ينبغى ألا أشغل نفسى كثيرا بأمر من لا أعرف . يبدو أنها مثل النجم . النجوم تظل فى السماء . يستحيل أن تنزل إلى الأرض .

مضى حوالى أسبوع . لم أتصل بنادرة ، ولم تتصل بى . فتحت كتاب حياتها أمامى . على أن أقرر . تستمر العلاقة أم تتوقف؟

طلبت منها الحضور إلى البيت . رفضت . تقابلنا فى بار قريب. أمامى كأس بيرة . معها عصير ليمون . أمسكت يدها : لم تتصلى بى منذ مدة.

- لم أكن فى حالة نفسية تسمح - نظرت فى عتاب : لم تطلب منى عمل مالم تعمله أنت ؟

- فى هذه معك حق.

لم أرغب - عامدا - فى أن أتكلم معها حول الموقف المؤسف . ما فائدة القول، والفعل قد حدث ؟ ضحية ضعفها . . أو مكر ذئب ، يعرف جيدا . كيف يصطاد شاة صغيرة . بعدت عن السرب ؟!.

مشينا والشوق ثالثنا فى اتجاه حى مونكلوا (Moncloa) . طلبت منها أن نذهب إلى البيت . أجلت اللقاء إلى الغد - بعد أن تفرغ من العمل.

غفر لها عذر التأخير ، أنها جاءت مثل عروس . يسبقها عطر

هادئ . خلعت البالطو . بلوزة حمـــراء – دون أكمـــام . الـــذراع المرمرى البض . يذكرك بتماثيل اليونان. نادرة الجمال .. يا نادرة. جلست بجوارها . أقبل خدها . أتحسس شعرها المسترسل . أفقـــت من سكر اللقاء : أريد شرابا باردا – لو سمحت .

– البيرة . . شراب العاشقين .

– وعدت أبى – حين وافق على ســـفرى – ألا أتنـــاول أى كحوليات.

– بالمناسبة . . ما اسمه ؟

– على بن حمود . زرت المغرب ؟

– بكل أسف . نزور أوربا أكثر مما نزور بلادنا العربيـــة . أقطارنا جزر منعزلة ، ومع هذا نقول : وحدة ما يغلبها غلاب.

– أتمنى أن نتشاوفو فى مصر . ولو مرة واحدة.

– عندما تأتى أعرفك بأمى.

– كيف دايرة ؟ كلمنى عنها .

أحضرت لها العصير . أعددت لنفسى كوبا من الشاى .

– اسمها سعدية . الاسم الذى تفضله . . أم كـــارم . كـــانت ناظرة مدرسة . متقاعدة الآن. أنا عالمها الوحيد ، لذلك لـــم توافـــق بسهولة على هذه الرحلة.

– أتمنى أن أكون أما لطفل . اقتربت من الثلاثيـــن . متـــى أنجب وأفرح بأولادى مثل أمى؟

– الدنيا تغيرت يا نانا . المرء فى هذه الأيام. عاجز عن تحقيق

الطعام والسعادة لنفسه ، فلم ينجب أطفالا . ؟

استرخت على الكنبة . أتأملها بمشاعر الفنان .

– هذه نقطة خلاف بيننا . المهم ما أخبارك الفنية ؟

– أنا فى حالة رعاية مكثفة . أرى . أتأمل . الجمـــال فـــى الطبيعة . فى البشر . فى المتاحف . فى الأماكن السياحية . عندمـــا أعود إلى الوطن ، أبدأ مرحلة جديدة ؟

– لى دور فيها .

– بلا شك يا عزيزتى .

١٣- عزف منفرد

ذهبت مع طارق وزوجته لمشاهدة مصارعة الثيران. لم أكـــن حريصا على هذه الرحلة. أعرف أن طارق قام بها مـــن أجلـــى. لا أميل إلى رؤية مواقف الصراع والقتال والدماء. رياضـــة عنيفـــة، يحتفظ بها الأسبان منذ عصر الرومان. لا أظن بلدا يهتم بها غيرهم.

الملعب دائرة . يبلغ قطرها حوالى أربعين مترا. يحيط بها سور خشبى متين بارتفاع مترين تقريبا . توجد أبواب لدخول المصارعين من الرجال والثيران . أماكن المتفرجيـــن متدرجـــة . أدهشـــنى أن معظم الحضور نساء . نساء إسبانيا لهن نكهة خاصـــة . دمـــاؤهن تجمع بين حرارة إفريقيا ، وبرودة أوربا ، وصعلكة الغجر . بيـــن الدم الغربى والدم الآرى . توليفة خاصة . نساء كثيرات لعبـن دورا خطيرا فى اضطراب الحكم العربى فى الأندلس . دخل المصارعون بملابسهم التقليدية وسهامهم وأرديتهم الحمراء . دخل الثور الهائج . بدأت المصارعة ...

لم أكن حريصا على مشاهدة المعركة، ســـرحت بخواطـــرى بعيدا. أفقت على أصوات السعادة والبهجة . عندمـــا ســـقط الثـــور صريعا. كانت النسوة أكثر الجمهور فرحا ورقصا وهتافا. تذكـــرت قول **ولادة بنت المستكفى** – حبيبة ابن زيدون:

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها

أمكن عاشقى من صحن خدى
وأعطى قبلتى من يشتهيها

بعد المباراة. تناولنا عشاء بحريا. تكلمنا كثيرا. فرح كل منا بالآخر. كارمن سعيدة لسعادتنا. تحب زوجها. تحرص على كل ما يرضيه. ارتاحت حين رأتنا سعيدين. دائما تحث زوجها على أن يقوم بواجب الضيافة. لفتة كريمة. من امرأة طيبة.

قال طارق مودعا: استمتع بوقتك جيدا. إذا احتجت شيئا أخبرنى، أو اتصل ببيلار.

الأسانسير يصعد. سألت نفسى لأول مرة: هل نصح طارق بيلار أن ترعانى كل هذه الرعاية ؟ فتحت باب الشقة. لكن إجابة السؤال ظلت مغلقة. على كل.. النتيجة أهم من السبب.

ليالى فى مدريد متشابهة. طوال وليل الغرباء طويل . اليوم يمر سريعا إلى حد ما. عندما يأتى الليل، تنمو الخواطر والمشاعر والمخاوف. فيما يتصل بحياتى فى مصر وإسبانيا. الليل يتطاول. يمتد. غابة من حشائش الهموم الشائكة. تفرش ظلالها على . كل من أعرف يذهب إلى حال سبيله. أبقى وحيدا. لا جليس. لا أنيس. لا صديق. لا حبيب. فى الليل الكل باطل، وقبض الريح. الناس هنا – حتى العرب – فقدوا روابط الأخوة والمحبة. كل مشغول بنفسه فقط لاغير. أشرب – أحيانا – من أجل نوم بلا أوهام.. أو كوابيس.

ما أعانيه حالة خاصة أم أن الناس تعودوا على هذا.؟ لم يصيروا قادرين، حتى على طرح السؤال. أسكرهم المال.. اللهو.. الحرية. هل تلك حياة حقيقية. ينمو البشر فيها نموا إنسانيا نحو

مستقبل أفضل أم بداية إفلاس حضارية ماديـــة. لا تعـــترف بـــالقيم الروحية.. ولا تقيم وزنا للعادات الأخلاقية ..؟!

نسائم الفجر أطلت. أغلقت زجاج الشرفة. أعددت كوبـــا مـــن الحليب الدافئ. أشتاق إلى سيجارة – رغم تحذيـــر الطبيـــب. فـــى الضوء الشاحب زجاجة العطر، تذكرنى بنادرة. تعجبت من نفســـى. ترفض الحب فى القاهرة. تسعى إليه فى مدريد. كارم الذى هنا هـــو كارم الذى هناك. تعرفت على بعض النماذج. أمى اختارت أكثر من عروسة. تتمنى أن تحمل أطفالى بيديها قبل أن تمضى. أخيرا يئست أمى. ورضيت أنا بالعزوبية. الفن ريحانة. لم أخلص لسواها.

فى مدريد كدت أنسى الفن من أجل الحب. آه من لوعة حبى. لم شغلتنى به – سبحانك – يـــاربى.؟! لا أدرى مـــع مـــن أتصـــل.. وأتواصل ؟ رانية.. سيدة فاضلة. لم تبدأ علاقتنا من باب الإعجـــاب أو الحب. معرفة طاهرة فى ضوء أبيض. ما بيننا قدر من الإعجاب المضمر. لم تقل.. ولم أقل. بقيت بيننا صداقة راقية.

بيلار.. فتاة رشيقة ذكية القلب. تعرف مـــا تفعـــل. تريـــد أن تسعدك. وتسعد معك. وجبة شهية. يتلذذ بها كل منكما. لا شىء بعد ذلك. واقعية الفكر والسلوك. نبتة متسقة مع المجتمع، الذى تعيـــش فيه.

بقيت حسناء طنجة. معجب بجمالها وذكائها وصراحتـــها. مـــا تريد منى ؟ ما الذى دفعها إلى أن تعترف لى. تحضر إلى البيـــت. تقول بلهجتها المغربية الحلوة "بغيت نطور علاقتنا". أول مرة أنتبـــه إلى دلالة العبارة. حين ينطق إنسان بلهجته المحلية، يكون صادقـــا

كل الصدق. معنى هذا أنها واعية.. لما تقول وتفعل. ما أراه صدفة، أم أمرا مقصودا ..؟!

تريد أن تأتى إلى مصر. تتعرف على أمي. حسام حذرنى: قد تورطك فى أمر ما. البوليس هنا يسمع لدعوى أية امرأة، حتى لو لم تكن صحيحة. أنهى كلامه مبتسما: خللى بالك. كثير من المغربيات ماهرات فى الصيد.

أفقت منتفضا.. ما حدث واضح الدلالة. حسبت نفسى صيادا. فإذا بى مصطاد.. مصطاد.. من البداية إلى النهاية. هذا نداء العقلى، لكن القلب عصانى . تلك وساوس. لا وجود لها. حسام هو الذى أفسد أفكارك. فتاة وحيدة غريبة، تبحث عن صديق، تأنس إليه. استراحت لك. واسترحت إليها. هدأت عندما اطمأن القلب الحائر. نمت نوما عميقا بعد أن هدنى الأرق والقلق طوال ليلة حزينة من ليالى مدريد.

صوت التليفون يرن رنات متوالية. أسمع صوته. لا أرى مكانه. الرأس به خدر ثقيل. لم أحاول أن أرد. تلك ليست عادتى. أفقت حين سمعت الصوت – صوت أمى الغالية:

- كارم.. أنت بخير يا حبيبى ؟
- مادمت راضية عنى.
- كيف أحوالك ؟ طمئنى. مشغولة عليك. احضر. كفى. لم أعد أتحمل.
- لا أستطيع أن أرفض لك طلبا.
- دائما تغلبنى يا شقى . كيف حال طارق ؟ هل تشرب

اللبن؟ لا تعرض نفسك للبرد. حافظ على صحتك يا حبيبى.

- وحشتنى يا ماما.. يا أجمل ماما.

ما الذى ذكرها بى فى هذا اليوم ؟ قلب الأم لا يكذب. يبدو أنها أحست بما أنا فيه. هذه المرأة أم مثالية. من أجلى حرمت نفسها من كل شيء. أنانى أنا. ألهو فى مدريد. وأتركها وحيدة فى القاهرة. ماذا يقدر أى ابن - مهما كان بارا - أن يفعل لوالديه.. ؟!

زادت همومى هما. ماذا أفعل حتى أرضيك يا أمى ؟ أعوضك عن الشباب الذى ضاع. الجسد الذى ذبل. سنوات الكفاح الطويلة. لو كان أبى حيا ما فعل ما عملته. أمى - سأعود. وأحقق الآمال، التى تجعلك راضية عنى.

الرجل لا ينسى امرأة إلا من أجل امرأة أخرى. شغلتنى نادرة عن كل من أعرف من النساء، حتى أمى. الذنب كبير. لكن هذه هى الحقيقة. أدرك خطورة التجربة. أمضى قدما نحو المجهول. مثل أبطال التراجيديا اليونانية. أحس ضعفى وقلة حيلتى إزاء أسلحتها الرشيقة. اليوم حب وغدا أمر. شمس العمر إلى غروب. ماء العيش إلى نضوب. ما فى الحياة باطل. لكن الحب ليس قبض الريح.

شغلنى أمر علاقتى بنادرة. أحاول أن أبتعد عن الحب. القدر يضعه فى طريقى. يسخر من محاولة الهروب. ربما كان عجزى فى الفن سببه هروبى من الحب. الحب استحسان روحى، وامتزاج نفسى، بين قطبين، ليسا من جنس واحد. إذا تمت الدائرة، اتصلت الألف بالياء. اشتعل الضوء .تفتح الخيال. تجدد الخلق ..!!

الناس لا يجمعون على دين واحد ، غير أنهم يتفقون على أن

الحب قيمة، لا خلاف عليها. إنه ينفى نوازع الشر. يطهر النفوس، يقوى الروابط النبيلة بين الفقير والغنى، العربى والعجمى، الأبيض والأسود. لم يصب أحد بالجنون، لأنه فقد الطعام أو الشراب. لكنه يعانى أشد حالات الجنون حين يتخلى عنه الحبيب. الحب هو الشرارة التى تضىء للفنان طريقه. الفن فى كل العصور. انعكاس لتأثير الحب فى حياة البشر. بالحب أدركت سر الفن.. وبالحب أدركت غاية حياتى.

فى الليلة التالية لم أغادر الشقة. لم يتصل بى أحد. احتسيت زجاجتى نبيذ. شيئا فشيئا خدر خفيف. يتثاقل.. يهز رأسى. يرتعش جسدى. الطعام يذهب أثر السكر. حمام بارد ينعش الرأس المتصدع. لا. لا فائدة. استرخى على السرير. كابوس – أبى يموت من جديد. أمى تبكى. زحام. صراخ. أصحو فزعا بعد دقائق. أحاول القيام. الوقوف. أتمايل. لا أقدر. ماذا لو مت وحيدا غريبا. وضعت رأسى تحت الصنبور. لا فائدة. بمن أتصل. لا أعرف. بيلار. نادرة. رانية. حسام. طارق. هناك مواقف لا تصلح إلا للرجال. صادق رجلا، تعش رجلا، وتمت رجلا.

تليفون طارق المحمول مغلق. تليفون البيت. رنات طويلة.. طويلة. أخيرا جاء صوت كارمن ، كيد من خلال الموج مدت لغريق. بعد دقائق معدودة حضر طارق ومعه زوجته.

رقدت على السرير. كمادات باردة . تخفف ضغط الدم، الذى ارتفع فجأة بسبب الإفراط فى شرب النبيذ. ضغط الدم مرض سرى. يصيب صاحبه بالسكتة القلبية أو انفجار شرايين المخ. ظلا بجوارى

إلى أن استغرقت فى النوم. "سأعود فى الصباح. أخـــذت المفتـــاح معى. لا تتحرك قبل أن آتى ومعى الطبيب.. طارق".

هذه الليلة المأساوية . تعدل كل ما اشهدت من متع الحياة فـــى مدريد . للقمر وجوه كثيرة . لا ورد بـــلا شـــوك . عنايـــة الله ... وشهامة طارق ، أنقذتانى من موت مفاجئ .. أو مرض شديد . أمى على حق : أطمئن عليك إذا كنت فى أى مكان ، يوجد به طـــارق . طارق لا أدرى كيف أشكرك . أنت الأخ الذى لم تلده أمى ..!

١٤- الحب.. فى زمنٍ مُلوّن

المرض حين يهجم، يأتى دفعة واحدة. مـرض الفجـاءة أمـر صعب. يحير العقل. يشتت الإحساس. فلا تدرى هـل تصحـو، أم تقوم القيامة، وترحل النفس اللوامة ؟ الإفاقة من مرض مثل ارتفـاع ضغط الدم، يأخذ فترة، حتى تستعيد أجهزة الجسد المرهق نشـاطها المعتاد . أبدى الطبيب قدراً من الدهشة حين وازن بين السن ودرجة الارتفاع: مازلت صغيراً نسبيا على هذه النسبة العالية !!

حتى المرض أصاب به بدرجة مبـالغ فيـها. تلـك ضريبـة تركيبتى النفسية الخاصة – نفسية فنان. لا تهدأ. لا تستقر. مشـغولة بالهموم الكبرى والصغرى. نفسُ ولىّ.. فى زمـنٍ، لا مكـان فيـه للأولياء.

زادت من آلامى حالة الوحدة – مع أنى لى صديقـة وعشـيقة وحبيبة.. وبعض الأصدقاء. اشتدّ الشعور بضعفى وقلة حيلتى. مـا أعانيه حالة من أصعب حالات الغربة. حين تريد فلا تجد. تحتـاج فلا ترى أحدا. ضعف الطالب والمطلوب.

أسرّى النفس بقول ابن زيدون:

يا ليل طل أو لا تطل
لابد لى أن أسهرك
لو بات عندى قمرى
ما بت أرعى قمرك

أى الأقمار أرجو أن يبيت عندى.. ؟! نـادرة. لديها سر خفـى

يجذبنى. إذا كنت تريدها فلم لا تكلمها ؟ لا أود أن ترانى فى حالة مرض وضعف. القادرة على تلبية ما أحتاجه فى مثل هذه الحالة هى أمى. حاولت أن أضاحكها ذات مرة: لم رفضت أن تتزوجى بعد موت أبى ؟

- الوفاء .. أجمل صفة فى النساء.
- لا.. لا. أبى كان رجلا. أمثاله قليلون.
- إذا كان رجلا بالنسبة لى، فلم لم ترث رجولته، وتتزوج ؟
- لا أجد امرأة مثلك.. يا ست الحبايب.
- دائما تغلبنى فى الكلام يا شقى.

قرصتنى بحنان فى خدى الأيسر: أكيد أنت متزوج فى السر.

- الإعلان.. أهم شروط الزواج الشرعى يا أم كارم.

فى بداية حياتى الصحفية. تعرفت على زميلة شابة.. نادية إبراهيم. أعجبت بى. أعجبت بها. اللقاءات لا تقرب المسافات. أكلمها عن الفن والحب. تتحدث عن البيت والأطفال.

- الحرية أمر ضرورى للفنان.
- الضرورى أن نشترى غسالة أوتوماتيك، وتليفزيون ملون.
- أمى تحب الأطفال.
- لن أنجب إلا بعد ثلاث سنوات – هذه نصيحة أختى الكبرى.
- نتزوج.. ونبقى فى شقة أمى.
- أهلى .. لن يوافقوا.

- أريد رأيك أنت.
- الفتاة العاقلة، تسمع كلام أهلها.

أن تتزوج زواجا تقليديا. وتعيش مع امرأة محافظة مثل نادية. فهذه كارثة فنية. هربت بعدها من محاولات كثيرة، لدخول القفص الحديدى. أمى تعودت على فوضويتى وتمردى. أغلقت الباب من عشرين سنة. وأنا أردد: أحب عيشة الحرية .

بيلار – كما توقعت – أول من سأل عنى. عرفت شيئا من طارق، أم أن هذه سمة من ذكاء الأنثى عندها . سألت إن كان يمكن أن تزورنى أم لا ؟

- تعرفين جيدا أن زيارتك تسعدنى.
- ربما كان عندك أحد.
- حتى لو كان .. سأنتظرك بعد العمل.

ما سر تحفظ بيلار هذه المرة ؟ لم أخبرها من قريب أو بعيد عن أى امرأة أخرى. الحاسة السادسة إذا عملت عند امرأة ، تكون أكثر نفاذا من قوة أى جهاز مخابرات فى العالم.

مع بداية المساء استقبلتها فى الأنتريه. دخلت غرفة النوم. النافذة مغلقة. السرير غير مرتب. أشياء كثيرة على الكمودينو. فتحت النافذة. بدأت تغير فرش السرير. ترتب فوضى حجرة مظلمة. مثل المعلمة مع تلميذ كسول:

– العلاج ليس تناول الدواء فقط. لابد أن تمارس عادات صحية. الوقاية خير من العلاج.

ثمة أمور شكلية، تحول بين رغبتى فى الزواج منها. عندها

كثير من صفات الأم – رغم أنها لم تتزوج. ويبدو أنها لن تـــتزوج. العمل. المال. التمتع بالحياة – دون قيد أو مسئولية. الـــهدف الأول عندها. تمنيت أن تجلس بجوارى. أنظر إليها بحنان وإعجاب.

- منذ رحلة طليطلة.. لم أرك، ولم أسمع صوتك.
- علمت من طارق خبر مرضك، فلم أحاول أن أزعجك.
- حاجة الإنسان إلى الصديق، تكون أكثر عند التعـوض لأى محنة.
- جئت إليك، دون طلب منك.
- أشكرك من كل قلبى. أبقى معى الليلة.
- بعد أن يتم شفاؤك.

أزالت قدرا من الشعور بالوحدة والغربة.. وفوضى الأشـــياء. خرجت فى هدوء كما دخلت. بيلار لوبز (Pilar López).. أنـــت امرأة عظيمة. من أجلك أحببت إسبانيا كلها.

- نادرة.. أين أنت ؟ أفتقدك.
- لم تكلمنى.
- كنت مريضا.
- ماذا حدث ؟
- أمر يطول شرحه. بغيت أشوفك.
- متى ؟
- الآن. لو تقدرين.
- وخا. وخا.

الوصول إلى قلب فتاة عربية. يمر بخطوات تقليديـــة متعـــددة.

جمعها أحمد شوقى فى بيت من الشعر:

نظرة، فابتسامة، فسلام

فـــكلام، فموعد، فلـــقاء

كنت أظن هذه عادة الفتاة فى مصر، فإذا بفتاة المغرب تمـــارس معى الخطوات نفسها بمهارة شديدة. العرب يتفقـــون جميعـــا فـــى العادات والتقاليد. الاختلاف فقط فى التفاصيل. بيننا يانادرة كثير من عوامل الوحدة. ومع ذلك فنحن مختلفون، متباعدون. اتفقنا على أمر واحد.. هو ألا نتفق. مثال جيد نحن للإخوة الأعداء. الدين. اللغـــة. الأرض. التاريخ. العادات. التقاليد. البحر الأبيض المتوسط . جامعة الدول العربية. لا حياة لمن تنادى.. يانادرة.

فى السابعة مساء الأربعاء طلع البدر على. قبلتها قبل أن أغلـــق باب الشقة. وضعت يدى على كتفها. جلسنا على الكنبـــة. نظـــرت بمودة: كيف داير ؟

- بخير حين رأيتك.
- فرحانة بذاف، لأنك بخير الآن.
- لو زرتنى قبل، لاختصرت أيام المرض.
- بين الجامعة والعمل، الوقت صعيب.
- ما تشربين ؟
- لا تشغل نفسك. أعرف طريق المطبخ.
- أتمنى أن تكون أول وجبة بعد الشفاء من يديك الجميلتين.
- يوم الأحد سأقضيه معك.
- أصوم من الآن.. يا حبيبتى.

ذهبت إلى المطبخ. عادت بكوبين من عصير الليمون. وضعتهما على المائدة. جلست أمامى.

- أريدك بجوارى.. يا نانا.

- هاكا.. أراك جيدا.

من يعلم المرأة كل هذا الدهاء. طبيعة أم عادة ؟.. فرق كبير بين بيلار ونادرة. بيلار كتاب مفتوح وعبارات مفهومة. نادرة كيان غامض. ورمز غير واضح . الزهور تسقى بماء واحد، ولكل زهرة عبيرها الخاص. المرأة مثل البيضة. ينبغى أن تعامل بحكمة سقراط، حتى تقشر بسهولة. بعد أن تنضج.. على نار هادئة.

تحدثت عن تعبها فى العمل. عدم الانتظام فى صرف الراتب. مطلوب منها أبحاث كثيرة فى خمس مجالات مختلفة. السكن المشترك مع بعض الزميلات غير مريح. المبلغ الذى يرسله الوالد لا يصل بشكل منتظم. عدم وجود إنسان تثق فيه. سألتها: من النساء أم الرجال ؟

- ماذا تعطى امرأة إلى أخرى. الأمان والحنان تجدهما دائما مع الآخر. فهمتنى ؟

- أظن ذلك.

جاءت لتخفف من أوجاعى فزادتها. حيرتنى حسناء طانجة. لا أشك أن ما تقوله صحيح. لكن.. لماذا اختارتنى، لتبث إلى شكواها.؟ لم تركت بلدها، وجاءت وحيدة. تحارب المجهول مثل دون كيخوته.؟ لو وجدت الراحة فى بلادها، لما ذهبت تبحث عنها فى بلاد غريبة. الحزين فى بلاده، حزين فى بلاد الناس.

انتقلت إلى جوارها. نامت على صدرى. شممت عطرها وأنا أقبلها. بعد مدة أفاقت. ودعتنى على وعدٍ باللقاء. غابت، فغامت أشياء كثيرة أمام ناظرى.

- أين أنت أيها الفنان العظيم ؟
- فى البيت.. ياصديقى العزيز.
- أنت الآن بخير.
- بخير يا طارق.
- سأمرّ فى العاشرة صباح الغد، لزيارة الأسكوريال.

طارق يختفى كثيرا، لكنه يظهر فى الوقت المناسب. أيهما أهم فى حياة الإنسان: الصداقة أم المحبة ؟ كلتاهما.. لاغنى عنهما. الصديق يُعطى معانى غير التى يمنحها الحبيب. الصداقة تواصل على قدر متساوٍ من العطاء. أخوة على الدوام. لا يتعكر صفاؤها بتغير الظروف والأيام. المحبة حالة. إذا تحققت، فينبغى أن تُعطى أكثر مما تأخذ. بل لا تسأل نفسك: ماذا أعطيت.. وماذا أخذت ؟ قد يكون فى المنح سعادة أفضل من الأخذ. فرحتك تكتمل حين ترى الآخر فرحاً. العين لا تغنى عن الأذن. هكذا تكون الحاجة إلى الصداقة والمحبة.

تجولت مع طارق فى الإسكوريال. مبنى ضخم فخم. أقامه فيليب الثانى فى القرن السادس عشر. فوق قمة ترتفع عن البحر حوالى ألف متر. يشتمل على القصر الملكى، والمقبرة الملكية، وكنيسة، ودير، ومدرسة، ومكتبة. المكان – مثل كثير من الأماكن السياحية فى إسبانيا – يجمع بين جلال التاريخ وجمال الفن. كنت

مبهورا بعظمة القصر الملكى، وروعة صور الكنيسة والدير. هــذه المناطق الأثرية، تغذى خيال الفنان. وتلهب مشاعره.

فى أثناء العودة سألنى طارق: كيف تمضى أيامك فى مدريد ؟

- هذه أول أجازة فى حياتى. تمتعتُ بكل ما حرمــت منــه طوال عمرى.

- إذا تعاملت مع بعض النساء فكن حذراً. الرومانسية لم يعد لها مكان فى الحياة، أو الحب، أو الفن.

- الرومانسية وحدها – ياصديقى – القادرة على تخفيف آلام الإنسان فى هذا العصر المادى المخيف.

- كارم فى مصر. هو كارم فى إسبانيا.

١٥- كنبغيك.. ونموت عليك

رغم برودة الجو - كنت أبيت على جمرٍ من الشـــوق. طـال ليلى. أنتظر موعد ريحانة الفجر. تأتى.. أم لا تأتى ؟ لا أحد - هنـا - يكذب، أو يجمل الكذب. الصراحة راحة. لم تكذب من قبل، فلـم تكذب هذه المرة ؟ أسترخى على السرير. الثوانى تمر بطيئة . أنظر إلى النجفة المعلقة. أتأمل العلاقة بينها وبين مفتاح النور. تبعـثرت ذاكرتى. تطاول الوقت.. ساعة.. ساعة ونصف. قلق علـى قلـق. أحرق أعصابى. ربما هى مع شخص آخـر. مسـتحيل. قلبـى لا يخدعنى. القلوب تتقلب. أطلبها فى التليفون: لماذا لم تأتى حتى الآن يا آنسة ؟

- اليوم السبت. الأحد موعدنا.

أول مرةٍ يحدث معى هذا. جنون الحب أم أعـراض شـيخوخة مبكرة؟ كذبتُ عليها: كنت أريد أن أسمع صوتك. وأذكرك بموعدنا.

- أنا فى العمل الآن. أرجوك . لا تطل المكالمة.

أغلقت التليفون. فتحت الباب. خرجت أشم الهواء. أرى ضـوء النهار.

فى موعدها أشرقت شمس الأمانى. شرعت أسلحتها الرشـيقة كلها. الشعر المصفف. الوجه البدرى بغير مساحيق. بلوزة بيضـاء مع بنطلون جينز. خلعت البالطو. رفرف القلـب بجنبـى. العيـن الحوراء. الشفاة المعسولة. تحرك الشوق بين وعد وعيد. ليس فـى الحب لمحبوب ذنوب. تعالى يا أمل الفؤاد وحلمه منذ الطفولة.

- أنت جميلة يا حبيبتى. أول مرة أراك بهذه الصورة.
- أرجو ألا تنسى الصورة ، التى وعدتنى بها.
- لا أقدر على نسيان أى شيء، يتصل بذكرياتك الحلوة .
- أنا معك.. وتقول ذكريات !!
- آسف.. لا أقصد .. يا ليلى.
- من ليلى يا قيس ؟
- أنت السبب. تجعلينى أنسى أشياء كثيرة.
- المهم لا تَنْسَ أن تضيفنى يا مجنون ليلى .

هذه الفتاة مرهبة مثل جيش بألوية. أين كنت غائبة عنى.. ياغصن بان ، مال من حيث استوى.. ؟! بأى قلب أعشقك. وبأى قلم أصورك. معك .. أحقق أحلام الحب وآمال الفن.

بعد تناول الشاى. استرخت على الكنبة:

- تسمح لى أن أدخن سيجارة ؟
- أود مشاركتك. لكن الطبيب..
- اعملْ ما ترغبه النفس. لا نعيش إلا مرة واحدة.
- وجهة نظر أحترمها. ولا أقدر أن أعمل بها.

أخرجت العلبة.. أمسكت السيجارة: لن أدخن إلا إذا سمحت.

- لا أستطيع أن أرفض لك طلبا.
- أين الكبريت.. يا حبيبى ؟

أنا فنان متحضر. مع هذا تلقيت أول صدمة. لماذا.. استيقظ صوت الرفض.. فى أعماقى ؟! يا رجل .. الدنيا تغيرت. المرأة

مساوية للرجل. فلم لا تدخن مثله ؟
تطرد الدخان من شفتيها المكتنزتين.
- بغيت نطور علاقتـنا. باغيك لىّ بوحدى.
- كيف يا نانا ؟
- كنرتاح معاك. كـتوحّشـتك كتـير.
- لدى نفس الشعور.
قلتُ ما تمنيتُ. مع هذا أحس أنى تسرعت فى الرد. طـول العمر أنت متردد. تشجع ولو مرة واحدة. جاءت المحبوبة. تمشـى بقدميها إليك. هى الطالبة وأنت المطلوب. أكثر من هـذا .. مـاذا تريد؟
أطفأت السيجارة عند المنتصف: آسفة.. لم أقصد.
- لا أريد أن تستعبدك عادة.
- سأعمل كل ما يرضيك.
انتقلت بجوارها. أقبل كل مكان فى وجهها. القبلة شـراب الحب. غذاء القلب: قلت لك عاملنى بحنان.
استرد الظبى أنفاسه. أمسك يدى. منه الجمال والدلال. مـن عينى متعة النظر ولذة السـعادة. مشـيت تختـال أمـامى: كيـف ترسمنى..؟!
- لم أفكر فى الأمر حتى الآن.
- كنت تكذب على.
- لا أكذب على روحى يا نانا.
وضعت يديها على خصرها مثل عارضـة أزيـاء: مـاذا

يعجبك ؟

- كل ما فيك من الأسرار يُغرى.
- يا حبيبى تعال .. تعال..

أخذتنى. أغلقت باب الحجـرة. لا أحـد غيرنـا. أضـاءت الأباجورة. بدأت تخلع ملابسها قطعة قطعة. مع كل قطعة تتوقـف، حتى أرى على مهل. تمثال من المرمر الخالص. صنعه فنان عظيم. يُحسن صُنع كل جميل. أيها الجمال الملائكى .. أين كنـت غائبـا عنى؟ هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان. عشيت عينـاى مـن نـور الجمال. نورها أبهى من ضوء القمر. سكران ولا خمر. فاحت ريـا المسك من أعطافها. قال بصوت هامس: طفى الضو.

تغذينا فى مطعم قريب. أكلت حتى شبعت. أول مـرة أشـبع. كأنى لم أتناول طعاما بشهية مثل هذه الوجبة. مشيت أنا وهى فـى الشارع الكبير. نحتفل بيوم الأحد السعيد. وصلنا إلى ميدان إسـبانيا. جلسنا فى الحديقة التى قبلتها فيها. أول مرة أحس مثل هذه السـعادة. العمر لا يقاس بالسنين والأيام. اللحظات الجميلة – وحدها – هـى العمر الحقيقى. جئنا إلى الحياة لنتمتع بما فيها.

عُدت إلى البيت عند منتصف الليل. نمت وحيدا علـى الفراش، الذى جمعنا منذ لحظات. اليوم نهايـة مـارس. غـداً أول إبريل. تعجبت لسرعة الأيام. علًى كلٍ.. بقى شهر. أغمضت عينى. احتضنت الوسادة. استسلمت لنوم عميق.

أمـى الحبيـبة

البعيدة القريبـة

إحساس بالسعادة يحتوينى
يشعل الشوق فى شراييني
الحب مارسته غير مرة
مـــع أكـــثر من امرأة
الفن عشته إبداعا وتذوقا
الطبيعة احتضنتها غربا وشرقا
من الطعام والشراب
شبعت حتى وصلت السحاب
السياسة خاصمتها عامدا
هربت من أعمالها قاصدا
حتى لا أكون كيخوته
أو أحد أبطال حدوتة
السعادة يا أمى
يا فرحي وهمى
أن نتنفس حرية
حرية الإرادة المفتوحة
لا حرية الضرورة المفروضة
فى الشرق.. فى الغرب
نورها صحى عذب
السعادة حرية
لكل البشرية
لا أمل فى ضياء

لا يتحقق رجاء
دون حرية.. حرية
السعادة حرية
الحرية سعادة
تحيا الحريــة
الحرية .. الحرية
الحريـــــة .

صحوت عصرا على صوت تليفون بيلار . طلبت مقابلتى لأمر عاجل وهام. افتقدتنى خلال الفترة الأخيرة، التى شغلت فيها بنـادرة. كيف أطيب خاطر هذه المرأة الجليلة ؟ تركيبة خاصة. عقل رجـل، ورقة امرأة. مازلت أفكر برأس شــرقى. هنـا المـرأة والرجـل متساويان فى كل الأمور. ربما تفضل المرأة الرجل. لابد أن أطيـب خاطرها. أحسنت إلى كثيراً. يكفى ما فعلته يوم طليطلة. ســآخذها ونتناول عشاء فاخرا.

سعيد يا قلبى. أمس مع نادرة. اليوم مع بيلار. أتنزّه فى بستان. بين رمان وريحان. سلمت. قبلت. باردة مثل ليالى الشــتاء. كيـف أعتذر لها. نساء أوربا متقلبات مثل جوها. ليست هذه بيـلار التـى أعرفها جيداً.

- جئت فى أمر ضرورى وهام. لا يعرفــه أحــد غــيرى. طارق..

- ماذا حدث له ؟

- الصفقة التى ذهب من أجلها إلى شرق أسيا. أُتلفت وهـــى فى السفينة.

- مصادفة أم عمدا ؟

- لا شيء فى عصر العولمة، يحدث مصادفة يا عزيزى .

- من تظنين ؟

- نحن فى عصر الشركات العملاقة، متعددة الجنسيات. رأوا أنه منافس جديد فى منطقة، يرونها ملكاً لهم.

- ماذا ترين ؟

- هذا الخبر لا يعرفه إلا طـــارق وزوجتـــه وأنـــا. أرى أن تزوره زيارة عادية. أنت الوحيد، الذى يقدر أن يدخل عالمه – دون استئذان. فى موقف مأساوى مثل هذا.

- كم تتوقعين الخسارة ؟

- الخسارة المالية يمكن أن تهون. شركة التأمين ســـتقوم – بعد التحقيق – بردّ النقود إلى أصحابها. الخسارة الحقيقية فى ســمعة المؤسسة. بعد أن بدأت تحقق انتشارا واسعا.

- تأتين معى ؟

- اذهب وحدك. تصرف كأنك لا تعلم شيئا.

- متى أراك ؟

- بعد أن أفيق من هذه الكارثة .

ركبت تاكسى. وصلت إلى بيت طارق. جو من الـــهدوء الحزين. يحتوى البيت ومن فيه. دهشت كارمن عندما رأتنى. قرأت فى وجهها قدرا من الرضا والراحة. سألتها عن طارق: نـــام منـــذ

لحظة. لا أريد أن أوقظه الآن.

- ولا أنا.. هو بخير ؟
- ماذا تقصد ؟
- أريد أن أطمئن عليه.

هى لا تريد أن تتكلم. أنا لا أحب أن أقول. طارق كان على حق حين تزوج هذه السيدة. أنا وطارق أخوان، بل توأمان. أحس به. ويحس بى، حتى عندما يكون فى إسبانيا وأنا فى مصر.

- لدينا بعض المشاكل فى المؤسسة.
- من أى نوع ؟
- أفضل أن يحدثك طارق عنها. كيف تمضى أوقاتك هنا ؟
- فى غاية السعادة. يكفى أنى قريب من طارق.

خرج طارق من حجرته. على وجهه علامات حزن عميق. فرح. ابتسم. تعانقنا. جلس بجوارى على الكنبة. ذهبت كارمن لإعداد بعض المشروبات.

- أريد أن أطمئن.
- أكبر خسارة تعرضت لها يا كارم.
- التجارة معرضة للربح والخسارة. المال يأتى ويذهب. المهم أن يظل الإنسان قويا.
- الشركات الصغيرة، لا مكان لها – اليوم – فى مجال التجارة.
- لم لا تنقل نشاطك إلى مصر ؟
- التجارة فى مصر محتكرة لفئات محدودة. لا أقبل أن أكون

سمكة. فى بحر كله حيتان.

- طارق.. أخاف عليك.
- عرفت من أين جاءتنى الضربة. وقد فهمت الدرس جيــداً. اطمئن.
- أرجو أن تقبل دعوتى للعشاء . أنت وكارمن.
- سبقتنى يا أخى. هذا ماكنت أفكر فيه.

ليلة من أجمل الليالى. قضيتها مع طارق. يحاول بين لحظة وأخرى. أن يقول نكتة. يقبل زوجته. يربت على كتفى. يشرب كأس النبيذ مرة واحدة. يلتهم قطعة من المزة أو الطعام. يشعل ســـيجارة. نظر إلى مبتسما: لكى تنتصر على المصاعب، ينبغى أن تكون أقوى منها.

قالت كارمن بهدوء: طارق.. أرجو ألا تفرط فى الشرب.

رد ضاحكا: اليوم خمر. وغدا يوم جديد يا حبيبتى.

قلت ضاحكا وأنا أرفع الكأس: فى صحة الأمل.

عدت إلى البيت متأخرا. طارق – فى إسبانيا – صار عوده أشدُّ صلابة من جبال طليطلة، وقلبه أكثر رحابة من نهر الوادى الكبــير. نموذج مشرف للمهاجر المصرى فى الخارج.

١٦- مغرمٌ.. من سُكره لا يفيق

أحسستُ سعادة غامرة. اطمأن قلبى على طارق . السعادة تكمل بالوصال. كلمت نانا. وعدتنى بالحضور بعد الانتهاء من العمل. أقطع الوقت بالقراءة فى "**طوق الحمامة**":

"من عجب ما يقع فى الحب طاعةُ المحب لمحبوبه، وصرفُه طباعه قسراً إلى طباعِ من يحبه، وربما يكون المرءُ شرس الخُلق، صعبَ الشكيمة، جموحَ القيادة، ماضى العزيمة، حميّ الأنف، أبيّ الخسفِ، فما هو إلا أن يتنسم نسيمّ الحب، ويتورط غمرّه، ويعوم فِي بحرِه، فتعود الشراسة لينا، والصعوبةُ سهلة، والمضاءُ كلالةً، والحميةُ استسلاما..."

رن جرس التليفونكن بشدة. إنها هى. أشم رائحة صوتها عن بعد. قابلتها على السلم. أحتضنها بقوة:

- الناس يروننا.

- الناس تقبل فى الحدائق والشوارع والمترو. الكل يقبّل. الكل يعانق. لا أحد يهتم بأحد.

قالت وهى تمرق إلى الداخل: ذكرتنى بيوم الأحد.

- اليوم السبت. كل الأيام جميلة مادمتِ معى.

- جائعة.

- نذهب إلى مطعم قريب.

- متعبة. عندك ما يُؤكل.

- الثلاجة ممتلئة. أنا كسول فى أعمال البيت.

- أستريح قليلا. وأعد عشاء خفيفا. اســـتلقت علــى كنبــة الأنتريه: حدثنى عن مغامراتك.
- كل من عرفت قبلك. لم يعد لهم وجود فى ذاكرتى.
- أنت تبالغ.
- افتحى صدرى. واسألى قلبى.
- لا أعتقد أننى أقدر على الحوار مع فنان مثلك.
- الغزالة.. أحيانا تهزم الأسد.
- تقول أحيانا.
- يا أميرة.. المطبخ فى انتظارك.

أعدت بعض قطع الدجاج المحمر. سلطة خضــراء. بــيرة. تفاح. فراولة. بعد العشاء قالت: تأخرت.

- لى عندك رجاء.
- تأمر أمراً.
- تقضى الليلة معى.
- لم أكن مستعدة.
- هذه أمنية.
- آه.. لو تعرف بشرى ؟
- من ؟
- أمى.. تضربنى بالصياط (الحذاء).

دخلت الحمام. طلبت ألا أدخل عليها. أمرها عجيــب حسناء طنجة. للجميل أحوال. الطاعة أولى صفات المحب كما يقول ابــن حزم. رؤية الجمال. تحيى النفوس . تغذى الخيال. تخصب الإلــهام.

هذه ليلتى. وتلك العروس. أفقتُ من شطحاتى على صــوت زهــرة الأنس. تطل برأسها: أريد فوطة كبيرة.

ريحانة الحسن ظهرت. الوردة تفتحت. مشطت شعرها. بــدت الأجزاء العريانة بيضاء. تسر العين. تزيد نبض القلب. مـــا هــذه امرأة. إن هى إلا ظبى بديع الحسن. كل ما فيها جميل من الـــرأس إلى القدم. صحت بصوت خفيض مردداً **قول حفصة الركونية :**

أغارُ عليك من عينى ومنى
ومنك ومن زمانك والمكانِ
ولو أنى خبَّــاتك فى عيونى
إلى يوم القيامةِ ما كفانى

- ما هذا يا شاعر الألوان ؟
- أشتاق إليك. وأنت أمام عينى ، يا نور عينى.
- شربت شيئاً ؟
- رأيت البدر.. ليلة القدر.

بتنا والوصل ثالثـــنا. رشفت ريقاً أرق من النسيم. أحلى من الشهد. أبلغ تأثيراً من الخمر..!!

فى الصباح خرجت مع نادرة إلى حديقة الرتـــيرو (Retiro) . حديقة كبيرة. تماثيل. أشجار. أزهار. نافورات مياه. الحديقة منســقة بشكل بديع. يسميها بعض الناس "حديقة العشاق". ابتسمتُ ساخرا فى أعماقى: هل يوجد هنا مكان، ليس للعشق فيه وجود ؟

نتكلم. نعدو – مثل الأطفال.. يوم العيد. نجلس فى ظل شــجرة.

ممارسة هوايات الطفولة، تطهرك من مشاعرها، وتوقظ الجدية في السلوك والقول.

- الطبيعة جميلة.. يا نانا.
- لا تحب غيرى. أنا فتاة مجنونة. أريد الرجل الذى يحبنى كاملاً. تفهمنى يا حبيبى ؟
- أحاول.

جلسنا على مقعد. قرب زهور منسقة مثل ألوان الطيف. الجو صحو. الهواء منعش. استندت على صدرى. أتحسس شعرها الأسود المسترسل. تغنى بصوت الكروان. تتمايل برأسها، وتهز يدها:

مرسولُ الحب فين مشيتِ
وفين غبتِ علينا
خايفْ لتكونى نسيتينا
وهجرتينا، وحَالفْ ما تعودْ

صمتت برهة. نظرت إلى شجرة عالية. أمسكت يدى.

- ألا تحب الأطفال يا كارم ؟
- لم أفكر فى الأمر، لأنى لم أحاول أن أكون زوجاً.
- أتمنى أن ألد عشرة أطفال .. نصفهم بنين والآخر بنات.
- يا حبيبتى.. هذا كان يحدث فى عصور ما قبل التاريخ.
- لا يهمنى التاريخ أو الجغرافيا.

نادرة ابنة الطبيعة. فيها قدر كبير من طزاجة الجميل، وبراءة الطيب، ونزوة المتمرد. القد الضامر المتناسق. فتوة الشباب. الرغبة المتوهجة. تتحرك لديها مشاعر الأنوثة بدرجة طاغية. تمثال

مرمرى لجمال الأنثى الخالدة. بؤرة العشق. ورحم الخلق.

رضا نفسى. يتحرك لدىّ. حاولت فى رحلاتى مع نادرة ألا أذهب إلى مكانٍ، مشيت فيه مع بيلار. ذكرنى هذا بضرورة الاتصال. ليس من طبعى أن أضيع تجربة من أجل أخرى. كل مليحة بمذاق. بيلار أول غرفة، دخلتها فى مدريد. مدريد الحب، والجمال، والطبيعة الفاتنة.

اتصلت بها. اعتذرت. قالت إنها ستتصل بعد يومين. هل هى حقا مشغولة بالعمل. أم أن بعض النساء تشعر - بحاستها الأنثوية - أن الرجل الذى تصادقه، لم يعد كاملاً لها.. ؟! الرأى الأخير. هو ما أطمئن إليه. مع ذلك سأستمر فى السؤال عنها.. إلى أن ألقاها.

تذكرت أننى لم أتصل منذ مدة برانية. حاولت أكثر من مرة. عثرت عليها في المساء. سعدت بالمكالمة قائلة: هنا لا أحد يسأل عن أحد. شكراً لك.

- سوف أعود فى نهاية الشهر إلى القاهرة.

- سأتصل بك قريباً.. يا صديقى.

معظم الناس مشغولون بالعمل. تعمل كثيرا. تكسب أكثر. تتمتع بالحياة أفضل. العمل هنا عبادة، توحد بين البشر. ربما يكون هذا سر زيادة عدد المهاجرين. من أمريكا الجنوبية، والبلاد العربية، وأوروبا الشرقية، وشرق آسيا.

١٧- الشمسُ .. تشرقُ فى غرناطة

اتصل بى حسام : عندى دعوة من السيدة ماريا إيفا خوسيه. يوجد اجتماع بمقر الحزب الاشتراكى. وهى حريصة على حضورك. انتظرنى أمام البيت. فى السابعة مساء غدٍ.

إيفا .. أديبة .. مناضلة من أجل الحرية منذ عهد الجنرال فرانكو. اعتقلت فترة فى أواخر أيامه. تذكّرنى بمواقف طلبة الجامعة فى مصر أثناء المدّ الاشتراكى المزعوم. منظمة الشباب كانت تعلم الجماهير مبادئ، لا علاقة لها بالواقع الحزين. النكسة نتيجة حتمية لعصر الشعارات البراقة، وحكم الفرد، وغياب الديمقراطية والاشتراكية. فرانكو أكثر ديكتاتورية من عبد الناصر. لكنه استطاع أن يبنى بلده، ويقيم مشروعات البنية الأساسية . بفضل فرانكو أصبحت إسبانيا، تنافس دول أوربا من حيث التقدم والثروة. الاستبداد عندهم يبنى ويعمل للأجيال القادمة. فى بلاد أخرى يخرِّب، ويسرق سعادة كل الأجيال.

أيقظنى صوت التليفون. نانا قادمة . ارتديت ملابسى. قابلتها بفتور . لم يكن لدىّ استعداد للخروج. لكنها أصرّتْ . جلسنا فى كافتيريا قريبة. طلبت كوبا من الأعشاب، وفنجاناً من القهوة. بدت حائرة. مضطربة. أمسكت يدها. أطرافها باردة : مالك يا حبيبتى ؟

- الشخص الذى خدعنى بالزواج العرفى . يطاردنى من جديد.
- كيف ؟
- جاء إلى البار الذى أعمل به. خرج ورائى. طلب أن يعود .

أعطيه فرصة أخرى.

- فرصة لماذا ؟
- حتى لو كان صادقاً. لن أعود إليه.
- أنت خائفة ؟
- لست خائفة . لكنى ضعيفة .
- ماذا أستطيع أن أفعل ؟
- لا تتخلّ عنى . بغيتك جنبى .

خرجنا . أمسكتْ بذراعى كطفلة ، تحتمى بأبيها . رفضت المبيت . عندها محاضرات في الجامعة غدا . قبلتها عند محطة المترو . عدتُ وحدى. صادقة فيما قالت، أم أنها تريد أنْ توصّل إلىّ رسالة ؟! حدثتنى أكثر من مرة وبصراحة أنها تحبّنى . اليوم هى تلّمح بالزواج . وصلت إلى البيت . وجدت مفتاح الباب. لكن أين مفتاح لغز نادرة ؟ الحب .. حرية شخصية. الزواج .. مسئولية اجتماعية. هربتُ من زواج بنات بلدى ، فهل أتزوج مغربية ؟ ما المانع ؟ كلنا عرب . مسلمون . عادات واحدة . بدأت أفك رابطة العنق : من اليوم ينبغى أن أحترس.!

ذهبتُ مع حسام لحضور حفل تكريم النساء المناضلات – اللاتى ناضلن من أجل الحرية والاشتراكية فى عهد فرانكو. إ يفا دينامو الحفل ، ونجمة الليلة. تقدّم المتحدثين، تسلم الهدايا. بدت شابة فى العشرين، بينما تسير نحو السبعين بهدوء متفائل. أكثر النساء وجوداً تجاوزن الستين . ومع ذلك يبدين من الزينة والأناقة أكثر من فتيات اليوم. حضر الاجتماع بعض وزراء الحزب السابقين فى

حكومة مدريد، وبعض قيادات الحزب من النساء والرجال.

بعد الاجتماع ذهبنا للعشاء فى مطعم قريب. حضر اللقاء **خُوليُو روكسى**، وزوجته **روسَا فايّى**، **وأندريـــز ريشــــى**، **وماريــــا إيفــــا**، **وكونشا كاستيو** ، **وإمّا كولادا.**

معظم الحديث يدور حول الحزب الاشتراكى فى إسبانيا. وأنـــه يمثل الأغلبية التالية لحزب اليمين المحافظ الحاكم . سألت :

- ما الفرق بينه وبين الحزب الشيوعى ؟
- الشيوعية تدعو إلى ديكتاتورية البروليتاريا. وتعتمد على الحكم الشمولى الفردى، الذى ينتهى غالبا إلى استبداد الحاكم. وربما كان هـــذا سرّ فشل الشيوعية فى روسيا. أجاب خُوليُو.

واصلت إيفا : الحزب الاشتراكى. يدعو إلـــى الديمقراطيـــة، والعدالة الاجتماعية ، والمساواة فى الحقوق والواجبات بين رئيـــس الدولة وأفراد الشعب. حتى البغايا والشوّاذ.

قالت روسَا : على كل حال .. المسافة بين الأحزاب المختلفـــة صارت متقاربة . طبقة العمال، أصبحت هى الطبقة البرجوازيـــة . تعادلت المستويات بين الطبقات الاجتماعية.

أضاف أندريز : النضال الحقيقى اليوم من أجـــل ديمقراطيـــة الشعب، وحرية الفرد . القرن الواحد والعشـــرون سيشـــهد ســـقوط معظم الأنظمة الديكتاتورية فى العالــم.

قالت كونشا : حزبنا يطمح إلى القيام بدور فـــى الدفـــاع عـــن الفئات المظلومة فى العالم خاصة المرأة .

أكملت إمّا : المرأة فى بلادكم يا سنيور كارم فى حاجـــة إلـــى

مزيد من الحرية والمساواة .

قلت فى نفسى : ليست المرأة فقط . المجتمع .. الذى ينصـــف الرجل ينصف المرأة. لا يتقدم أى مجتمع إلا بحرية الإنسان . يجـد السكن . الوظيفة . العلاج . حرية الرأى .

أنهى اللقاء نزول المطر بشدة . طلب السنيور روسكى أن أقبل دعوته للغداء ، لنكمل الحديث فى وقت قريب.

- شكراً . نتصل .. ونواصل الحوار . إلى اللقاء .

فى طريق العودة. سألنى حسام إنْ كنت أرغــب فــى زيــارة غرناطة. قلت لنفسى : واشــوقى إلى الأندلس .. !!

حلم قديم أن أزور المناطق ، التى عاش فيها العرب.. ثمانيـــة قرون كاملة. ملكوا فيها كل شيء . وخرجوا دون أى شيء. مفارقة عجيبة غريبة . التاريخ ليس حكراً على أمة مــهما عظــم شــأنها. سافرنا ليلاً بالطائرة . نزلنا بفندق وادى الرملة . فى الصباح تركنى حسام عند المنطقة الأثرية. ذهب يصور مخطوطاً من مكتبة مدرسة الدراسات العربية .

هذه غرناطة (Granada – معناها الرمانة) . تختال – مثـــل العروس – بين جبال ســييرا نيــفادا، ونهر شنــيل، المتفرع مــن نهر الوادى الكبير.

مشيت فى حىّ البيازين.. الجزء المتبقى من المدينة القديمـــة . وميدان باب الرملة. وسوق القيسرية. والكتدرائية ، التى بُنيت فــوق مسجد غرناطة. ومدرسة غرناطة القديمة. وتمثـــال كولمبــوس – مكتشف أمريكا الجنوبّية .

لم تكن الأحياء القديمة هى ما يشغلنى . اللهفـــة كلـــها.الشـــوق أجمعه نحو رؤية قصر الحمراء (Al-Hambra) أو ما تبقّى منـــه. أروع الآثار الأندلسية، بل إنه من أبدع الآثار الإسلامية قاطبة. هنــا الفن مجسدا. الجلال مشيدا. الخلود مؤبدا . هذا الصـــــرح العظيــم بقاعاته ، وأعمدته، وبحيراته، وتماثيله ، ونقوشه، ودقة معمـــاره ، يعكس عظمة الحكم العربى للأندلس. كانوا يسمّون غرناطة دمشق ، لما بين المدينتين من تشابه، يلخصه لسان الدين بن الخطيب بقوله :

بلدٌ تحفُّ به الرياضُ كأنه

وجهٌ جميل والرياضُ عِـذارُه

وكأنما واديه معصمُ غادةٍ

ومن الجسورِ المحكماتِ سوارُه

قصر الحمراء . بناء أبقت عليه الأيام ، ليكون منارة معجــزة . فناء الريّان، بهو البركة، بهو السفراء ، قاعة الأختين ، بهو الأسود، قاعة بنى سراج ، قاعة الملوك ، جناح الملكة .

كلما خرجت من مكان، عدت إليه مرة ثانية . أرغـــب فـــى أن أحـــفُر فى الذاكرة صورة القصر العجيب . هذه التحفة المعماريـــة النادرة . آية فى الإعجاب والإغراب . هنا يمتد الخيـــال . يعجــز اللسان . يجمد البيان. يبكى قلبى دما . وهل لنا من فخرٍ سوى البكاء على الأطلال ؟ تذكرت قول أم عبد الله الصغير لابنها بعد أن ســلّم مفاتيح غرناطة :

"لا تبك كالنساء على ملكٍ ،لم تحافظ عليه محافظة الرجال. "

وقفت بعد ذلك عند قصر جنـــة العريــف ! (Generalife –

العريف تعنى المهندس). يشرف من ربوته العالية علـــى صـــروح الحمراء . قصر أنيق المنظر ، اختلطت أجزاؤه العربية السفلى بمـــا أنشأه ملوك الأسبان فوقها من مبان جديدة . عند المدخل نقشت على لوحة خشبية "سورة الفتح". فهو – كما تذكر القصيدة المنقوشة فـــى ساحته – قصر بديع الحسن والإحسان. تعجبت. كيف يـــهزم مـــن أقاموا هذه الحضارة الخالدة – التى تتحدّى الزمن ؟!

نقلتنى الذاكرة إلى الوراء خمسة قرون . صحت من أعماقى :

يا كل عباد الرحمن
الذين مشوا على هذه الأرض الطيبة
أنا من سلالة عبد الرحمن قنـــديل
أسائلكم :
لماذا خرّبتم بيوتكم بأيديكم
وخرجتم من دياركم أسرى
على أرجلكم ؟
ولم تبقـــوا قتلى فى بلا دكم .. ؟!
ضاع مُلـــككم – أيها الأجداد الأمجاد
بين زقّ الخمر وأفخاذِ النساء
وتفشىّ الفرقة والبغضــــــاء
والتحــــالف مع الأعـــــداء
اليوم – يا شيوخنا الأشاوس الأباعد
أخـــشى أن
تصبح القدس العتـــيقة
غرناطــــــة جـــديـــدة .!!

عدت إلى الفندق حزينا أسفا. سألنى حسام :

- أعجبتك آثار غرناطة ؟
- أعجبتنى .. وأحزنتنى .
- يا رجل انس الماضى . عش الحاضر . وانظر إلى المستقبل بثقة . جوّعتنى .
- آخذ حمامًا باردا فى البداية .

١٨- الجمال .. والجلال

عدت من غرناطة مثــقلاً بمشاعر متناقضة . أمر .. لا خــلاف عليه . مثل هذه الرحلة . تخصب خيال الفنان . الفن شعلة مقدســة. فى حاجة دائمة إلى زاد جديد، كى يظل القنــديل متوهجــا . كلمــا اتسع الأفــق ، فاض الخــيال ، وفاح العــبير .

أخذتنى سنة من النوم بسبب الإرهاق الجسدى والنفسى . أفقــت على جرس التليفونكن . نادرة. فتحت الباب . أهزّ الرأس . أحــاول أن أتخلّص من الصداع . أخشى أى ارتفاع فى ضغط الدم . مــوض عصرى جديد . قبلتها فى هدوء. فى العينيْن معانى . لم أشهدها من قبل. ما بى . شغلنى عما بها.

- كداير ؟
- متعب قليلا .
- أين كنت ؟
- فى غرناطة .
- لم تقل لى .
- لم تكن هناك فرصة .

الزوجة العربية . تنصب للزوج محاكمة عســكرية . إذا فعــل أمراً، لم يطلعها عليه . كما توقعت . تعاملنى نادرة .

- ما بقت لى راحة ولا صبر. إيــش جذبنى ليك .؟
- تعرفين كم أعزّك .
- بدا قلبى يبغيك . اللى شافك يخاف عليك . وعنده الحــق

يخاف.

- لا تخافى يا حبيبتى . قلبى معك .
- ما يكفاش . نبغيك كـلك .
- أفكّر فى هذا ..

ذهبتُ إلى الحمام . غسلت وجهى . أريد أن آكل شيئاً. أحضرت تفاحا وسكينا. لم أرها فى الأنتريه. فى السرير وجدتها نائمة . تركت الحجرة مظلمة . تمددت بجوارها . قادمة من العمل متعبة . أمنت فنامت . نظرت إلى التفاح والسكين . تذكرت قصة يوسف مع امرأة فرعون . ما كان، فهو ما يكون، وما سيكون . البشر هم البشر. فى أىّ زمان ، أو مكانٍ، أوْ جنس. أحسست أنها راحت فى سبات عميق. تركت الباب مواربا. فتحت التليفزيون إلى أن تقوم. دق جرس التليفون . أمسكته سريعا ، حتى لا تستيقظ . طارق يريد أن يرانى . وعدته باللقاء صباح الغدّ، لأنى مرهق الليلة.

أول مرة .. أكذب على طارق. على كلٍ .. كذبة بيضاء . الكذب كذب . لا أبيضٍ . لا أسود. من أجل نادرة (ها كّا لا باس). أبتسم فى داخلى . (وخّا . وخّا). هذه الفتاة موديل فنى.. أم عاشقة معشوقة ؟

أين مكان بيلار من قلبى ؟! أول امرأة يضمنى وإياها فراش واحد فى مدريد. رانية نعيم . سيدة فاضلة فى منزلة بين المنزلتيْن : الصداقة والمودة . التمست الإجابة عند بيكاسو الفنان التشكيلى الأسبانى . كان يعشق مع كل لوحة، يرسمها امرأة جديدة. يعدُّها مصدر إلهامه . ويظل مغرماً بها إلى أن تنتهى اللوحة. ندمت، لأنى

لم أحضر أدوات الرسم. ندمت أكثر ، لأنى لســـت إســبانيا مثــل بيكاسّو.

طال الوقت . من السادسة إلى العاشرة مساء . بهدوء واحــتراس – دخلتُ غرفة النوم . الغزالة لا تزال..! هناك فرق بيـــن القطــة العاصفة مستيقظة، والحمامة الوديعة نائمة . استرخيت بجوارِهــــا. إلى حضنى ضممتها. النوم إحدى الراحتيْن . أحسست قـــدراً مــن العطف نحوها. فتاة وحيدة .. ضعيفة ، تسبح ضد التيّار فــى بــلاد غريبة . رماها على المرّ .. ماهو أمرُّ منه.

ذهبت إلى طارق فى المكتب. أنتظـــر قليـــلاً . يوجــد بعــض العملاء. قريباً من بيلار جلست. هادئة .. فى حركتها .. أناقتـــها .. ألوان ملابسها .

– أشتــقت إليك.

– المرأة هى المرأة ،فى الشرق. فـــى الغــرب . يرضـــى كبرياءها دائما .. أن تكون مطلوبة .

– أريدك اليوم ياعزيزتى الجميلة.

– أفضل مساء الغد .

إذا اصطدمتْ سيارتان حدثت كارثـــة . يجب أن تظل كل منهما فى اتجاه مخالف. سأقول لنادرة إنى مشغول ، حتى لا تحضر فجـأة – كعادتها .

قابلنى طارق مبتسماً : لم نعد نراك. أصبحت لك حياة خاصــــة فى مدريد.

– لا أريد أن أعطلك .

- سأستضيف الأصدقاء الذين قابلتهم، حتى تودّعهم قبل السفر.
- ذكرتنى بما نسيت.
- يُمكن أن تمدّ فترة الرحلة .
- إذا وافقت جهة العمل، فلن ترضى أمى.
- ليتك أحضرتها. وحشتنى كثيراً.
- ربما .. فى مرة قادمة.

لو كانت أمى موجودة . لما استطعت أن أقوم بكثير مما فعلت. لا .. لا . ما فائدة مثل هذه الرحلة لسيدة عجوز ؟ تقول عجوز .؟! هنا سيدات فى السبعين والثمانين متحركات، نشيطات - بفضل التأمين الصحى، والمعاش الشهرى.

بعد انتهاء العمل. تغدينا فى مطعم قريب . طارق وزوجته . أنا وبيلار. لا أدرى سرّ تمسكه بحضورها. فى الحقيقة كنت سعيدًا بذلك. حبّ نادرة .. لم يقلل من عشق بيلار . ربما كانت بيلار بهدوئها الرزين أقرب إلى قلبى . لماذا ..؟ يا رجل دائماً فى كل أمر تقول لماذا؟ انس (لماذا) هذه، حتى تريح وتستريح .

عند باب المطعم سألنى طارق : هل تحتاج شيئاً ؟

- شكراً . أريدك معى عند شراء هدية لأمى.

صاحت كارمن : ما دخل الرجال فى شىءون النساء؟ كما أنك لا تعرف المحلات أو الموضة.

- فى هذه معك حق.
- ماذا تريد ؟ سأل طارق .

- لا شيء محدد.

قالت كارمن : اترك هذه المهمة لي .

بمثل هذه العلاقات الإنسانية الدافئة ، يصبح للحياة طعم حلــو. يغري بالأمل والسعادة. أتمنّى لو كان طارق معي في مصــر .. أو أنا معه في مدريد . لكن (لــو) تفتح باب المستحيل .. !

في موعدها – مثل العصفورة الرقيقة الرشيقة- جاءت بيــلار. كدت أحملها بيديّ ، وأنا أقبّلها فرحا. جلست بجوارها على الكنبــة معجبا بذوقها الهادئ . فستانها بني فاتح. الحذاء وحقيبة اليد قريبتان من اللون البني. الوجه مشرق. لامكياج . لا ألوان . فقط شذا عطر مريح. قصت شعرها، فبدا قصيرا جدا ..!

- أين شعرك الجميل ؟
- التغيير .. يُشعر بتجدد الحياة.
- جميلة .. وفيلسوفة .
- انتهى عصر الفلسفة والســريالية . كــل المعــارف والعلــوم والفنون، ينبغي أن تسير علي الأرض. أليس كذلك يا عزيزي الفنان؟

العقل يمنح المرأة جلالاً فوق الجمال. الحوار مع امرأة ذكيــة – أحياناً – ألــذّ وأحلى.

- ما تشربين ؟

ضحكت بخفة وغمزتْ بعينها: قهوة مع اللبن .. !!

حمامة وديعة. ضممتُها إلى صدري . أنفاسها هادئة مثل نســيم الصباح . عذبة الريق. ملائكية الجسد . شاعرية الــروح . اللقــاء معها لقاء بين عالمين . يتكاملان . يمتزجان . يتوحــدان . الخيــال

ينبثــق . العقل يتــفتح . القلب يــثب . الروح تتجدد ، حين يكــون لقاء بين عالمين . يتكاملان. يمتزجان . يتوحّدان . شرارة المعرفــة تتولد. حين يلتقى قطبان. تصبح الحياة أسطورة أمل بغيْر ضفــاف . الحب شفاء الروح ، قبل أن يكون دواء الجسد .!!

ضممتها أكثر. قالت فى دلال : تكسر ضلوعى.

– لا أصدق أننى سأحرم منك .

– **عش اللحظة . وانس ما عداها ..!!**

أنت على مذهب عمر الخيام يا حبيبتى .. "**غد بظــهر الغيــب، واليوم لى .. !!**" قبلتها ألف قبلة. من الرأس إلى القــدم . حمامــة رقيقة. الحمامة .. جميل شكلها. لذيذ لحمها. تمصّ نخاع عظامــها. تأكلها كلها إنْ أردت – دون عُسر هضم. الخمر الصافية تُســكر . ولكن.. لا تؤذى المعدة.

١٩- غائبٌ.. لا يغيبُ

ذكرنى طارق وكارمن باقتراب موعد السفر. أشـــترى بعــض الهدايا لمن هنا.. وهناك. الهدية رمز المودة. مشيت مساء الخميــس من أرجوييز إلى بلاسا مايور. عادة سيئة فى حياتى . لا أمـــارس الرياضة – رغم نصيحة الطبيب . مشيت على مهل. أتأمل فاترينات المحلات . وجوه الناس . معـــالم الطريـــق . البنايـــات الشـــاهقة . التماثيل الجميلة . الأضواء الملونة . إشـــارات المـــرور. بحلقــتُ باتساع عينّى . أمعن النظر عن بُعد قريب . أبتسم . الحلم حقيقـــة . هى إياها . هى التى أبحث عنها. تقابلنا وجهًا لوجه . الرؤية هكـــذا صادقة . لا لبْس فيها . حيّتْ بابتسامة بدرٍ – لم يغب ضوؤه عـــن خيالى : كارم الفنان القدير . هنا فى مدريد . لا أكاد أصدق.

سلمت بهدوء . أحاول ضبط انفعالاتى : لم نتعرّف بمـــا فيــه الكفاية فى القاهرة . سعيت أبحث عنك هنا .

- أنت مخبر نشيط .
- معجب. استجاب لرغبة ملهمة .
- تبالغ . تعطينى أكثر من حقى .. وحجمى.

مشيت بجوارها عائدًا من حيث أتيت : لا تعرفى مـــدى تـــأثير وجهة نظرك عندى.

- نسيت ما قلتُ يوم التقينا .
- التلقائية .. تعبّر بصدق عن داخل الإنسان.
- فنان حتى فى ملاحظاتك .

- عند المشى ينزل الكلام إلى القدمين ، وعند الجلوس يصعدُ مباشرة إلى الرأس.

- نكتة أم فكرة ؟

لا أستطيع تأمل مفاتنها، وهي بجوارى : مهم أن نجلس . أسمع صوتك . أقرأ ما يدور فى رأسك .

- نتمشى الآن. أراك غدًا فى فندق مونكلـوّا (Moncloa). الحادية عشرة تماماً.

- أخشى أن ...

- كن وّاثــقاً.

- أثق فيك . وأشك فى نفسى .

- لماذا ؟

- لن أنام من الآن حتى نلتــقى .

- هذا الكلام المعسول من فنان ، يرضى كبرياء أىّ امرأة .

- بالمناسبة ما اسمك ؟

- **نبيهة .. نبيهة رشيد.**

- اسم على مسمّى .. يا فاتنتىْ الحلوة .

- شاعر أم فنان تشيكلى ؟

- شاعر بأن لك منزلة سامية .

- ينبغى أن نفترق . موعد زيارة مع صديقة .

- إلى اللقاء .

- إلى اللقاء.

اختفت فى الزحام . عدت راجعا. لم أمش. لم أشتر . يكفى أنى

قابلتها . هذه ليلة ميلاد جديد. خشيت أن أحدث أحدا عنـــها حتـــى طارق. الآن . المجهولة معلومة. الخيال واقع . غدًا ألقـــاك . أروى الفؤاد الظمآن . أشكو إليك ما بى . ياراحتى وعذابى .

جلست فى أقرب بارٍ . تناولتُ كوبيْن من البيرة.يكفـــى هـــذا . أخشى أن يعاودنى صداع الضغط فى ليلة ، ابتسم فيها الحـــظ بعـــد رحلة بحث طويلة .

لم يطل ليلى . نمتُ حتى لا يفلق التفكير رأسى . هـــذه بعـــض فوائد البيرة . مبكراً صحوت .. على غير العادة . حلقت الذقـــن . أخذت حماماً ساخناً وباردا. لبست– فيما أظن – أجمل ملابســـى . بدلة زرقاء . قميص أبيض . كارفتة حمراء . بها نقـــوش ورديـــة زرقاء . عاشق – طال انتظاره – يزفّ إلى عروس، شُغف القلـــب بها حبًّا. كتمت سرّها فى صدرى. مثل اللؤلؤ المكنون بصدفة فـــى أعماق اليم . بحر الهوى ليست له شواطئ .. يا ملهمتى الساحرة.

ذهبت قبيل مجيئها. أشرق البدر فى موعده . تمشى الـــهوْينا . تقترب. يخفق قلبى أكثر . قبلتها. سمحتْ بين القبول والصـــدّ : لـــم فعلت هذا ؟

– ليس أنا .. قلبى .

– هربتُ منك فى القاهرة . فسعيت إلىّ فى مدريد .

– ما رأيك ؟

– فرصة سعيدة . يكفى أنك ذكّرتنى بمصر.

تزوجت فى سنّ مبكرة من رجل. يعمل فى السلك الدبلوماســـى – بعد أن تقاعد من الجيش . أنجبت بنتا واحدة . لم تحاول أن تكرر

التجربة . لماذا يأتى الآباء بأبناء ، يشقون فى حياة، لم يقدر الآباء أنفسهم على تحمل آلامها ؟ زوجها تقاعد من الجيش . العسكرية صارت عادة. تجرى فى عروقه . دائما مشغول . الزواج ليس نصف الدنيا ولا ربعها . الحرية الشخصية هى السعادة . لا نعيش مرتين . أنت حر . ما لم تضر . أجمل ما فى الحياة أن نتمتع بها. شغلت نفسها بالثقافة والفن . تواظب على المجلة التى أعمل بها. قرأت عنى . لم تأت إلى المعرض صدفة – كما بدا لى. أعجبتها اللوحات . الفنان الحقيقى. ينبغى أن يتفوق على ذاته. الطموح الفنى.. تجاوز فى الرؤية والتشكيل .

– لم أتصور أن لقائى العابر، يحظى بكل هذا الاهتمام .

– كلماتك حروف من نور . نقشت فى كتاب مستور.

ابتسمت فى رقة وحياء : عدلت الرؤية ؟

– عدلت كل شىء .. كل شىء فى حياتى .

– أول مرة أحظى بعناية فنان عظيم .

– الصدفة . قد تؤثر أكثر من العلاقة الدائمة.

– قلت فى لحظة . ما عجز زوجى عن اكتشافه طوال عشرين سنة .

– مالك الحديقة ،لا يرى جمال الزهور .

– لا أقبل أن أكون ملكا لأحد . أنا ملك نفسى فقط .

– عندك حق ..

بدا عليها قدر من الانفعال المفاجئ . لا أدرى ما الذى استثارها إلى هذه الدرجة . فى حياتها سر . لم يشأ كبرياؤها أن يشير إليه .

علاقتنا لم تتوثق بعد . ربما حضرة الضابط، يعاملـــها باعتبارهـــا جنديا فى معسكر التدريب .

– أرجوك سيدتى الجميلة .

– تفضل ... قل ما تريد .

– زجاجة برفان . تمنيت أن أحضر خـــاتم ســليمان. لكــن الجنى خطفه وطار.

– جنىّ أم فنان ؟ تنظر إلى الزجاجة مبتسمة .

– تقبلى دعوتى للغداء .

– لديك طلب آخر ؟

– أسافر بعد أيام . أريد مقابلتك مرة أخرى . وأن أراك كلما جئت إلى المحروسة .

– لك ما تريد.. يا صديقى .

– أنت صفحة جديدة .. فى كتاب حياتى .

– أنصحك أن تكتب الأدب بجـــوار الرســم ، وأن تســجل ذكرياتك عن مدريد.

– لست روائيا .

– الهواية أفضل من الحرفة . اكتبْ بريشتك. ستكون روايــة مستقبلية . الهاوى – دائما– يتجاوز المألوف .

– لم أفكر فى هذا من قبل. أحبّ قراءة الروايـــــة. لكـــن .. الكتابة . لم أمارسها قط .

– من أجل خاطرى . حاول .. ستنجح . متأكدة أنا .

من أجلك يا بهية المنظر والجوهر أحـــاول. وراء كـل فكــرة

عظيمة .. امرأة جميلة . تفتح طاقات الخيـــال. توقـــظ القـــدرات المكنونة . ملهمة ساحرة . تكتـــشف الغيــــب . تقــرأ المجــهول . الملهمة النبيلة. مثل الورد حين يتفتح . النهار إذا يصبـــح . الحــظ عندما يسمح .

مر الوقت سريعا. طلبت ألا أخرج وراءها. ودعتـــــها بزفـــرة ودمعة . عدت جسدا . قيده الحب بخيوط من نور.

استلقيت على سرير الذكريات . اكتشفت أنى مشغول بنـــــادرة ونبيهة. شتان بين النونين . لا أتمنى . أن ألتقى هنا بنبيهة، حتى لـو أرادت . لا أرغب. لماذا .. لست أدرى. حيرتى لماذا هذه يا بيلار. كيف أنفيها من قاموس حياتى .. ؟!

ابتسمت لفكرة لا أتذكر مصدرها. فحولة الجسد دلالـــــة علـــى فحولة المزاج النفسى. العظماء – طوال عصور التاريخ – تزوجـوا أكثر من مرة . أو كانت لهم أكثر من عشيقة .!!

تخيلت نبيهة تبتسم .. من بعيد : يا رجل نم . أرح عقلك .

– تصبحين على خير .. يا ملاكى الطاهر.

٢٠ـ لاعب شطرنج

نمت نوما عميقا. سعادتى - بلقاء نبيهة - لا توصف . هذا عصر المعجزات والإنجازات . الصدفة .. قدر مقصود . لو أحسن المرء توظيفها . أحلى ما فى الحياة الصدف. يا معرضا عما أصف. قد نما حبك عندى وزكا.

قطع صمت المناجاة صوت نانا. صرت أحس ضيقا من اسم نادرة . خلعت البالطو . بلوزة بيضاء . تداخل بياض البلوزة.. مع بياض الذراع والبطن. معظم الأسبانيات يلبسن بلوزة . لا يزيد طولها عن صرة البطن - دون حمالة نهود . بيض اليمام يتهادى فى دلال جذاب. الجمال الفطرى - دون مساحيق - أجمل . حقيقة فنية غابت عنى طويلا. التدرج فى إطار اللون الواحد. اللون الواحد.. درجات. تعطى اللوحة سحرا . لا يقل عن تناسق الألوان. الوحى يهبط - هنا - كل حين وآن . أيها الضوء الذى غبت عنى سنين عددا. لا تفارقنى عندما أعود . أنا الذى هنا. هو من سيكون هناك .

- كيدايرة ؟
- مهلوكة . تغديت ؟
- لا أجوع بسرعة . أنا رجل نباتى.
- يكفيك اللحم الأبيض.. ياشهريار .
- لا. أنا بيكاسو.
- من هو ؟

- صديق قديم .
- فيّ الجوع . بغيت ناكل معاك .
- الأكل من يديك له طعم لذيذ .
- من يدى .. أم من شىء آخرٍ ؟!
- يا شقية .. أنا رجل عذ رى.

ضحكت ضحكة ساخرة : كلنا عذارى فى عصر العوْلمة .

أعددت أنا وهى وجبة جافة. سلطة خضراء. تونـــة. ســلمون. جبن . زبادى . تفاح . كمثرى. بيرة.

- تتعاطى البيرة يا كارم ؟
- علاج للكلية والرأس يا نانا.
- سأشرب على مسئوليتك يا طبيب القلب .

أتأملها . خلعت البنطلون والبلوزة. حسناء طنجة مصرّة . بــلاد الأندلس فيها سحر . يغوى الناسك الزاهد. تمتّعْ باللحظة وانس مـــا عداها. صدقتْ بيلار . قالت نانا : نبغى نطوّر علاقتنا .

- أكثر من هذا .. !!

أخذتْ رشفة من كوب البيرة : نذهب إلى العدول (المأذون). إذا ما تزوجتنيش غد. نقتـــل راسى . ونهنيك (نخلصك) منى.

لم أرد عليها . اتجهت ناحية الحمام : فين غادى ؟

- أغسل وجهى .

غسلت وجهى ورأسى . أفيق من ثرثرة نانا. شـــيئا .. فشـــيئا تبدى ما تخفى . الحذر واجب، حتى تمرّ الأيامِ الباقية . بين السُــكرِ والفكر. أداوى القلب. قلّتْ حيلتى . كلما داويتُ جرحًا، فاض جرح.

وجدتها مسترخية فى حجرة النوم . السرير هادئ .. فى ضــوء هامس . ما أحلى الرجوع إليه .. إليه .

خيطٌ ما ينفصل
شعاعٌ آخر يتصل
الأنثى المتوهجة
الفاكهة الطازجة
صارت مجرد موديل
قالب من التورتة
فى الرأس الصغير
طفل غرير
لا يدرى كيف يسير ؟
فى الزمان نفسه والمكان
جاءت من رياض الجنان
حورية تلهم الفنان
شاعرية الألوان
المورد العذب
لا يعرف الكذب
يروى ظمأ القلب
الحياة- يا صديقتى- يحركها
لاعب شطرنج ماهر .!!

اتصلت بحسام عبد الكريم أكثر من مرة. أريد رؤيته. اعتــــذر.

كثرة المشاغل. سوف يحدد موعدا للقاء ، عندما نلتقى فـــى بيــت طارق. سرعة إيقاع الحياة . تجعل المرء يتــشرنق داخل عالمـــه . لا يرى . لا يعرف إلا ذاته . يدور فى فلكها . يحبس نفســـه فــى دائرتها . الصناديق المغلقة تحملها عربة واحدة . لكـــن لا يعــرف أحدها عن الآخر شيئا. ميزة .. أم عيب ؟ لست أدرى .

فكرة .. تاهت عن بالى . أشترى بعــض الــهدايا . المنـــاطق القريبة من ميدان بلاسا مايور شعبية. الأسعار معقولة. نزلت مـــن التاكسى . أتأمل المحلات. حركة الناس .أفكـــر .. مـــاذا أريــد أن أشترى .؟

الساعة الواحدة ظهرا . الميدان مزدحم . عطلة الأحد . أتنقـــل بين واجهات المحلات. أتردد كثيرا فى شراء الهدايا للغير . الهديـــة على ذوق المهدى إليه. ليست على ذوق المهدى. الهدية بغير مناسبة شىء محير . المناسبة عودتى من إسبانيا. آلاف البشر يســافرون . ما هو فى الخارج فى الداخل . المهم المـــال .. المـــال . إذا وجــد المال، تيسر الحال.

بينما أنا هائم فى مناجاة النفس . هجم على شخص أسود. نحيـل طويل . جاء يعدو بأقصى سرعة . عيناه تلمعان . تتحركان فى كل اتجاه. احتضننى صائحا : ساعدنى . يريدون القبض على.

من بعيد .. التفت بعض رواد الميدان . لم يتحرك أحد بـــالقول أو الفعل . كأنما يشهدون مباراة مصارعة الشيطان. أدركت ســريعا أن مثل هذا الشخص الشرير، النجاة منه مستحيلة : كل ما معــك .. أو حياتك. أحاول .. أحاول التخلص من قبضته الحديدية . أصابعـــه

الألكترونية ، تتحسس جيوبى كلها. أصيح بأعلى صوت : النجـدة . النجدة . بوليس . بوليس.

لا حياة لمن تنادى. تركنى. اختفى . حبة ملح ذابت فـى بحـر مزدحم. لا أصدق أنه تركنى سليما – دون أذى .

بدأ بعض المشاهدين يقتربون منى . قدمت لى امرأة . يبدو أنها يابانية زجاجة ماء. شربت. أجفف عرقى بيدى. عزت على نفسـى. أول مرة فى حياتى . يحدث لى مثل هذا الموقف. تقدم منى عجـوز إسبانى : سنيور . ترك اللص لك بعض النقود ، لتعود إلى بيتك ؟

أفتش جيوبى . أخذ كل شىء ، حتى مناديل الورق. لم أسـتطع أن أقول شيئا. أعطانى عشرة يورو. بصق : لعـن الله المـهاجرين الصعاليك .. من المغاربة وأمريكا اللاتينية .

ترددت فى أخذ الورقة الحمراء . أصر . لم يكن أمامى خيـار آخر. قلت له : أشكرك.

رد .. وهو يسير بخطى بطيئة : De Nada. (لا شكر علـى واجب).

نظرت إلى الأرض قبل أن أتحرك . مفتاح البيت قرب حذائى . ركبت أول تاكسى . ضاعت مائتان وخمسون يورو. لـن أشـترى هدايا . الحمد لله . نجوت من موقف سخيف . طوال الطريـق لـم تغب عن ذاكرتى المضطربة .. الصورة المخيفة للص الأسود.

٢١- من يزرع الزهور..؟!

عدت إلى البيت . أحسست قدرا من الأمـــان . بيـــت الإنســـان جنته. حادث مؤسف. لا دخل لى فيه . يحدث لأى إنسان .. فـــى أى مكان. الجرائم يطرد نموها بتطور التكنولوجيا . رغم ما حدث كنت محظوظا . لم يكن معى التليفون المحمول، ولا جواز السفر . لـــن أتكلم مع أحد فيما حدث . صدقت بيلار : عش اللحظة، وانس مـــا عداها.

رن جرس التليفون . أسرعت. أتكلم مـــع أى أحـــد.. فـــى أى شيء. أتطهر من مشاعر القلق والوحدة. الوحدة صعيبـــة وقاتلـــة . خولـــيو روسكى. يدعونى لقضاء يوم معه - كما وعدته.

فى الحادية عشرة صباحا حضر بالسيارة . معه زوجته روســـا فايى. شيء طبيعى أن يقبل رجل امرأة . أما أن يقبل رجل رجـــلا ، فهذا أمر شاذ.. أو غير مقبول - على الأقل . جلست بجواره فـــــى الكرسى الأمامى.

- قضيت وقتا طيبا فى إسبانيا ؟
- إسبانيا جميلة مثل أهلها سنيورة روسا .

قال خولـــيو: ليست هناك جنة على الأرض. كل بلـــد فيـــها .. وفيها .

ضحكت روسا ضحكة رقيقة: لا توجـــد جنـــة علـــى الأرض. ربما.. ولا فى السماء. معظم الأوربيين - اليوم - يعتقدون هذا .

رغبت فى أن أتحاشى الكلام فى منطقة مليئة بالألغام . أمـــور

العقيدة بؤرة خلاف بين كثير من البشر. البحث فى أمور الاتـــفاق. أفضل من الكلام فى مسائل الخلاف : أين سنذهب يا سنيور؟

- منتجع جميل فوق الجبل اسمه (Mira Flores) معنـــاه : انظر الزهور !! مكان يصلح للفنانين والأدباء . أنا مهندس. مع ذلك أفضل هذا المكان الهادئ عن مدريد الصاخبة.

الطريق - إلى ميرا فلورز - ضيق . ملتـــف . صـــاعد إلـــى أعلى. أينما وجهت نظرك، تجد الخضرة . تكسو كل مكان، حتـــى أعالى الجبل. الأفق بلا حدود . الهواء نقى . الطرق معبدة . ســـور حديدى على الجانبين. يا ألله.. هذه جنة الأرض. فكيف تكون جنـــة السماء..؟!

القرية السياحية هادئة . معظم السكان غير موجوديـــن . فـــى منتصف إبريل. الدنيا ربيع . الجو بديع . الارتفاع عال . الـــهواء. الخضرة. الأشجار . الزهور . الهدوء . ضوء الشـــمس الحنـــون. الرفقة الطيبة. كل هذا محا الآثار المحزنة لحادث الأمس.

جلسنا فى بلكونة الدور الثانى الواسعة . أتأمل الطبيعة . نتحـدث عن الجو . عادات الشعوب. أهمية الصداقة بيـــن البشـــر . العـــالم أصبح قرية صغيرة .

أتأمل الخضرة .. الأشجار .. الأزهار .. البيوت المتداخلـــة .. الشوارع الملتفة . السماء الزرقاء تشكل خلفية صافية، لمشهد نسجت الطبيعة صورته.

تذكرت مبدأ مهما من مبادئ الفن. تثبيـــت اللحظـــة / الزمـــان للمشهد المستلهم ، يجعلك تكتشف أسراره الخفية. تراه أكثر من مرة

فى الوقت ذاته. تكرار الرؤية .. إيقاع متناغم. ترى – من خلالـه – ما لا يبصره عابر سبيل.

ذهبنا بعد ذلك ، لتناول الغذاء أمام مطعم قريب. نستمتع بالأكل، والشرب ، والكلام ، ومشاهدة الزبائن ، والسائرين فى الطريق. أمام المطعم شجرة عمرها ثلاثمائة عام. بقـى منـها سـاق عريـض، وتجاويف فارغة ، موضع الفروع التى جفت . بدا عليها أثر الزمن. الزمن . يهزم الأحياء والأشياء. جلسنا ساعة أو ساعتين. هنا تنسـى الوقت. وتنسى نفسك . هنا الهدوء الحلو. الجنة العذراء . الصحبـة الأليفة.

فى طريق العودة . طلبت روسا أن أشرب الشاى عندهـم فـى البيت. كدت أصيح دهشة. البيت قرب بلاسا مايور. من يصدق ..؟! قرأ السنيور خولـيو على وجهى علامات الدهشة : ألم تـر هـذا الميدان الجميل ؟ الفنانون هناك لهم مكان خاص.

خجلت أن أحكى لهم قصة سـخيفة. لا أود اسـتعادتها، وإنمـا محوها تماما من الذاكرة. لكن المصادفة ألحت. لاعب الشـطرنج، يجيد لعب المفارقة .

الشقة منسقة بشكل دقيق ، حتى حجرة الحمام. دخلتها فى البداية لغسل الوجه ، والتخلص من آثار البيرة. روسا متوسـطة الطـول. متوسطة الامتلاء . شعرها أسود. عينان عسـليتان خلـف نظـارة ذهبية. وجه أبيض مشوب بحمرة. ظننتها فى الأربعيـن . أكتشـف أثناء الحديث أنها تجاوزت الستين بعام. تدخن وتشرب بشـراهة – مثل زوجها . الإنسان يجب أن يتمتع بكل لحظـة فـى حياتـه. لا

تشرب . لا تدخن. لا تحب . فلم تعيش إذن؟!

خولـــيو طويل . نحيل. أحمر الوجه. أزرق العينيـــن. تخطـــى الثالثة والستين. يتمتع بالحياة مثل شاب فى الثلاثين. يؤمن بأمرين : مبادئ الحزب الاشتراكى . والتمتع بالحياة. نعمل . نتعـــب. نـــأخذ فلوسا . نتمتع بكل ما نقدر عليه. الدنيا حقيقة واقعية .. وما عداهـــا أسطورة متخيلة.

ونحن نتناول الشاى سألتنى : المرأة عندكم متخلفة ؟

– المرأة عندنا وزيرة. عالمة ذرة . طبيبة. مناضلة سياسية . عاملة . لم يعد هناك مجتمع ، ينكر حق المرأة فى الحياة.

– لكنها تعانى من مشاكل خاصة مثل العذرية والختان.

أضاف خولـــيو : وسيطرة الرجل، وعدم الاشتراك فى حركـــة المجتمع. الاشتراكية تحرر المرأة من كل هذا.

– يا عزيزى .. كل مجتمع له تقاليده . هذه دعايات إعلامية مغرضة. حادثة فردية واحدة . تقع فى بلد ما . يسلط عليها الضـــوء الأسود. ثم يقال كل العرب أو المسلمين هكذا. لكم تقاليدكم . ولنـــا تقاليدنا . من منا على صواب ..؟!

صاحت روسا : نحن طبعا .

– غير صحيح . نحن نعرف الكثير عنكم . وأنتم تعرفـــون أقل القليل عنا .

– أنتم السبب . مجتمعاتكم مغلقة.

– سنيور خولـــيو . الذى يرى أنه يعـــرف الحقيقـــة وحـــده مغرور، أو دعى. الشرق شرق، والغرب غرب. ويمكن أن يلتقيا ..

إذا استيقظ ضمير الإنسان .. عند كل منهما.

روسا – وهى تطفئ عقب السيجارة : معك حق.

طلبت من السيد خوليو أن يوصلنى بعربته بحجة أنى مرهق. فى الحقيقة.. لم أرغب فى أن أمشى – وحدى – فى الميدان الكبير.. مرة أخرى.

قلت للسيدة روسا – وأنا أقبلها مودعا : أتمنى أن أراك فى مصر.

– أرجو أن نلتقى مرة أخرى.. فى أى مكان .. أيها الصديق العزيز.

٢٢- لقاء الأشقاء

السبت ٢٠ من إبريل . بقيت عشرة أيام على العودة. الليلة موعدنا فى منزل طارق. اللقاء مناسبة طيبة للوداع . تخنقنى هذه الكلمة. ألا يمكن إلغاؤها من قاموس الحياة.؟ لم يحضر الجميع – كما توقعت . فى الثامنة حضر معظم الأصدقاء: خليل نصر الله. جاسم الجبورى. حميد بوعلى . حسام عبدالكريم. رانية نعيم. ماريا إيفا. خالد مروان.

قال خليل ، وهو يرفع كأس النبيذ : فى صحتكم أيها الأصدقاء الأعزاء.

قال حميد : فى صحة كارم – ضيف الشرف.

رد طارق : سبقتنى يابو على.

أكمل خالد ، وهو ينظر ناحية رانية : هذه ليلة وداع. دعونا نحتفل بالصديق المسافر.

قال حسام : تقصد الا نتكلم فى السياسة ؟

رد خليل : عليك نور .. يا ابن الحلال.

صاحت إيفا: السياسة غذاء يومى للبشر. لم تريدون الهروب منها؟

أجابت رانية : أنت لا تعرفين طبيعة الحياة فى بلادنا يا عزيزتى .

قالت كارمن : ماذا تقصدين ؟

أجاب جاسم بصوت خشن : الحكام – عندنـــا – لا يســمحون بالحرية . والجماهير لا يثورون من أجلها.

قالت إيــفا : لا أصدق.

قال طارق : الأمر ليس هكذا بالضبط.

أضاف حسام : أزمة بلادنا العربية. تتلخص فى أمرين : الأخذ بالمنهج العلمى ، وتحقيــق الديموقــراطية .

قالت إيــفا: لا علم ولا ديمقراطية بدون الاشــتراكية وحقــوق الإنسان.

قلت : معك كل الحق يا عزيزتى . ربما كـــان عــدم الوعــى السياسى راجع إلى أن ثــقافتــنا .. ثــقافة محافظة. لا تولــد قــوة عمل ذات معرفة وقدرة على النقد والتجاوز.

قالت كارمن مبتسمة : بمناسبةالاشتراكية . العشاء جاهز.

نهاية ساخرة لحديث جاد. الكلام لا يحقق المنـــهج العلمـــى أو التطبيق الديموقراطى . حقوق الشعوب ليست وجبة جـــاهزة مثــل عشاء الليلة. أقسم كثيرا أن أبتعد عن أحاديث السياسة. فجأة أجدنـــى غارقا .. غارقا، حتى أذنى.

عند تناول الحلوى. همست رانية : أريدك الليلة لأمر هام.

ودعت الجميع. بقى حسام ورانية . حسام يريد أن يتحدث معــى كما وعــد.. وربما طارق . اعتذرت لهما . الوحيدة التى أدركــت حرج الموقف السنيورة كارمن : ربما كان متعبا . دعوه يســـتريح الليلة.

أحيانا – لا ينقذ المرأة إلا امرأة مثلها. خرجــت أنـــا ورانيـــا. برودة منعشة فى الشارع. تعلقت بذراعى الأيسر. أضــع ذراعــى الأيمن فى جيب البالطو.

– الجو بارد . نذهب إلى بيتى .

– أفضل النوم على سريرى .

سألتها فى التاكسى : ما الأمر الهام ؟

– أودعك . هل يعلم أحد متى نلتقى ؟

– ما رأيك فى حديث الأصدقاء ؟

– أنا صحفية .. لكن لا أفضل الكلام فى السياسة .

– جاسم معه حق . الحكام لايسمحون بالحرية . والجمــاهير لا يثورون من أجلها، لأننا نعيش فى أنساق فكرية محافظة .

– يا رجل. لا تكن متشائما . الكفاح من أجل الحريـــة، لــم ينته حتى اليوم.

وصلنا إلى البيت . تخففت من بعض ملابسى . رانية اغتسلت . لبست قيمصا ورديا. جاءت بكوبين من الشاى : سأفتقدك كثيرا.

– القاهرة ليست بعيدة .

– حين تستقر أحوالى.

– أرجو أن تهتمى بنفسك. استفيدى من مــــرارة التجربـــة. اكتبى لى دائما ، حتى أطمئن عليك.

تلعب فى خصلات شعرها الفاحم : يوم مرهق.

– لكن .. النهاية سعيدة يا صديقتى .

أجمل ما فى الصداقة أن تترك ذكرى طيبة . ودعت رانية على أمل باللقاء .. هنا أو هناك . يمكنها الاعتماد على طارق عند اللزوم. وداعا .. يا صديقتى الطيبة.

أحاول كثيرا الاتصال ببيلار . تتهرب منى . أتحدث معها فى التليفون .

- أسافر بعد أيام .
- أعرف .
- أريد أن أودعك.
- سأصحبك إلى المطار.
- أول من يستقبلنى . آخر من يودعنى . أكون سعيد الحظ.

التقيت بها مساء الاثنين. جاءت وقورة . هادئة . لم ألق الحرارة، التى أعرفها ، حين قبلتها عند باب الشقة.

- لديك سر لا أعرفه .
- تعرفه جيدا.

هل شمت بحاستها الأنثوية أننى بعدت عنها؟ لا أظن أن ذلك، يثير غضب امرأة أوربية . اقتربت منها لم تقاوم . فى العينين حزن وحيرة.

- يجب أن أتعود على بعدك.
- كنت صريحا معك.
- هذا ما يؤلمنى.
- سأنتظرك ، لأقدم لك فى مصر بعض ما عملته من أجلى.

- لا أظن ذلك.
- طارق سيسهل عليك الأمر.
- أرجو أن أقدم لك أية خدمة.
- تكونين راضية عنى. تعودت البسمة والتفاؤل فى وجـــهك. لن أنسى قولك.
- ما هو؟
- تمتع باللحظة، وانس ما عداها.
- تشرب قهوة مع اللبن ؟ خلعت الجاكيت مبتسمة.
- لا أستطيع أن أرفض لجميلة طلبا.. يا عزيزتى .

ضحكنا ضحك طفلين، وتسابقنا إلى المطبخ لإعداد القهوة.. مـع اللبن.

٢٣- جذور الوهم

تناولت الغذاء مع طارق وزوجته . أحبه كثيرا. أجمل ما في "رحلة صحبة طارق . أحيانا يمر أسبوع لا أراه . لكنى مطمئن إلى أنه قريب منى. يغرينى وجوده بالعودة. من يدرى.. ربما. استأذنت بحجة الراحة بعد النوم.

- أوصلك أنا ذاهب إلى المكتب.

في الطريق سألنى : قضيت فترة سعيدة فى إسبانيا؟

- أشكرك على كل ما فعلته.

- لا تبالغ .. أيها الفنان العظيم .

أخذت حماما باردا. استرخيت على السرير . فى انتظار نانا. لا تعلم. اليوم أخبرها. الصراحة راحة. الصدق ضرورة بين الأصدقاء. سعدت معها سعادة غامرة . أكلنا خبزا وملحا . قضينا أوقاتا سعيدة. عشنا لحظات حلوة. أكلم جسدها المرتوى . أناجى فؤادها المحب للحياة. فتاة جميلة – مثل النبيذ الإسبانى – تنسيك كثيرا من أوجاع الحياة، لكنها تخلف صداعا خفيفا.

جاءت . مشرقة .مرحة : أريد أن آكل . أشرب . أرقص . أغنى . تدور فى الصالة . تهتز فرحا .

قلت ضاحكا : هيا يا شهرزاد – مددت ذراعى نحوها.

- شهرزاد. ملكة. اليوم تعد لى العشاء إلى أن أخرج من الحمام.

- أمرك يامولاتى.

بعد العشاء جلست بملابسها الداخلية . بيضاء الوجه والجسد والقلب . تتمايل .تهتز.قالت : كلمنى . أريد أن أسمع صوتك.

– صوتك أجمل يا حبيبتى .

– اليوم أنا سعيدة ، لأنى معك. سأغنى وأرقص مثل الشيخة.

– من الشيخة ؟.

– الراقصة عندنا تسمى الشيخة.

قلت ضاحكا : يا شيخة .. قولى كلاما غير هذا.

– إذا غنيت أنا ، تصفق أنت.

وقفت تتمايل رقصا.. وغناء. وهى سعيدة. ناعمة الصوت والجسد.

لا تفكرنى بخصام وهموم لا تفكرنى
لا تحيرنى لحين يدوم لاتحيرنى
لاتعاتبنى بكلام اللوم لاتعاتبنى
لا تحاسبنى إحنا ولاد اليوم لا تحاسبنى
لا تفكرنى، لاتحيرنى إحنا ولاد اليوم
أنا نسيت ، ما بقى فى بالى لو ذكرى، تغير حالى
إنت اللى بقيت ساكن خيالى فى أجمل صورة
يا حبى الغالى، خللى الماضى يعدنى ماضى
ودير فى بالك الزمن قاضى
لا تعاتبنى بكلام اللوم ولا تحاسبنى إحنا ولاد اليوم
ياك اللازم ، غير فكرنى كيف بدينا ، وكيف حبينا

يـــا الظــــــالم ، لا تسألـــــــنى ياك ولينا ، رغبـــة فينـــا
خللى الماضى ، وعد لى راضـــى ودير فى بالك، الزمن قاضى
لا تعـــاتبنى بكـــلام اللــــــوم لا تحاسبنى إحنا ولاد اليوم
لا تفكرنـــــى ، لا تحاســــبنى إحــنا ولاد اليــــــوم

أغنية لطيفة. فتاة جميلة . سهرة ســعيدة. لــم اختـــارت هــذه الأغنية؟ مصادفة .. أم مقصودة؟ نظرت مبتسمة مرحــــة. تتنــاول تفاحة. تأكلها مباشرة.

– مزيونة يانانا. قبلتها إعجابا بالرقص والغناء والدلا ل.

– أعجبك صوتى.

– معجب بكل ما فيك . لكن...

– أخاف دائما من كلمة لكن هذه.

تحاشيت ألا تقع عيناى فى عينيها : أسافر بعد أربعة أيام.
رمت التفاحة فى الطبق . تغيرت ملامح الوجه : لم تخبرنى من قبل.

– تعرفين أننى أسافر نهاية إبريل.

– نسيت . لم تذكرنى .

– أذكرك الآن . أرجو أن نفترق أصدقاء.

جذبتنى بجوارها على الكنبة : لماذا نفــــترق .. لمـــاذا .. يـــا حبيبى؟ قل لماذا يا كارم؟
وضعت يدى على كتفها. أداعب شعرها : انتــــهت الإجـــازة . أعود إلى عملى.

- تتركنى وحدى ؟
- ماذا أستطيع أن أعمل.
- تأخذنى معك.
- كيف ؟
- زوجة .
- لم نتفق على هذا .
- لقاؤنا . تفاهمنا . حبنا. هذا هو الاتـــفاق.
- لا أنكر أننى أحببتك. استرحت إليك. قضيت أوقاتا ســـعيدة معك.
- ما تريد أكثر من هذا؟
- أن نفترق أصدقاء.
- أنت بلا زوجة . أنا بلا مستقبل . خذنى معك.
- تفكرين مثل امرأة عادية من فاس أو مكناس . أنت طالبة دراسات عليا.
- أكون زوجة مخلصة لك ، أفضل من الدكتوراه.
- نانا .. لماذا جئت من طنجة إلى مدريد ؟
- الإنسان يعدل مسيرته حسب الظروف .
- أرسلك أهلك من أجل الدكتوراه . ليس من أجل البحث عن عريس.

ازدادت التصاقا بى . تضع يدها على كتفى :
- أرجوك.. لا تتركنى للضياع . ألا تخاف على ؟

قبلت جبهتها : واثق أنك ستحققين الهدف، الذى جئت مـــن

أجله.

- مرة ثانية . أصاب بخيبة أمل.. فى حبى.
- الإنسان الحقيقى يصر على تحقيق أهدافه . أنصحك فكرى فى الدكتوراه أولا.
- كارم .. لن تتزوج ؟
- الزواج ليس هدفى . لو كان كذلك ، لتزوجت من عشرين سنة، كما تريد أمى.
- فنان مثلك ، لا يضرب عن الزواج إلا من أجـــل هــدف آخر.
- الفن.. حبى الأول والأخير.
- طفل واحد . يبتسم لك، أفضل من متاحف الفن كلها.
- من أجل الفن جئت وحدى. وأعود وحيدا كذلك.

نظرت فى تحد وغضب : عنيد ومتعــب. الرجــال كلــهم هاكــا.

- لكنى .. لم أخدعك يا نانا .
- للمرة الأخيرة . أرجوك . خذنى معك. لا تتركنى ..
- أفضل أن يسير كل منا فى طريقه.
- لا أقدر أن أعيش وحدى. ماذا أفعل بعد سفرك ؟
- إذا كنت غير قادرة على الحياة هنا، فاركبى أول طــائرة ، وعودى إلى أهلك.

تكومت حول نفسها على الكنبة . الفتاة العاصفة خفت زوبعتها . أكلمها. أقبلها. أدلك ظهرها . أتحسس شعرها. لا تتحرك. لا تتكلم .

القطة المرحة .. أمست عصفورة حزينة.

- نانا عندى فكرة . نخرج . نشم الهواء . مع الناس ننسى كل شيء.

- لا باس.

ساعدتها على ارتداء ملابسها. أداعبها كالعادة. مشينا فى الشارع. أمسكت يدها فى يدى. شيء ما انكسر بيننا . أن تخلع جذور الوهم خير من أن تنمى شجرته. بدت حزينة - كما توقعت . طفلة كبيرة . لا أقدر أن أعمل لها أكثر مما قدمت. ما يريحنى أنى كنت واضحا معها. وصلنا إلى ميدان إسبانيا . رغبت فى أن نجلس فى الحديقة، التى قبلتها فيها أول مرة.

ردت هامسة : تعبت. أفضل أن أعود.

- نذهب إلى البيت معا.
- سأذهب إلى بيتى .
- أنتظر هذه الليلة بشوق.
- لا أقدر.
- أوصلك إلى البيت.
- أحاول أن أعرف الطريق وحدى.
- أراك مرة أخرى.

قالت وهى تركب الأتوبيس : ربما..

وحيدا عدت فى الليل . البيت فى أول الليل فرح. فى آخره مأتم. نهاية مأساوية لتجربة حلوة. كنت قاسيا معها، صدمتها . فجعتها . تريدنى زوجا. لا أقدر. لم أعد بشيء . الحكمة العاقلة . قد

لا تنجح فى موقف مثل هذا . الكذب بين المحبين خيانة. أن تبكــــى اليوم أمامى ، أفضل من أن تفعل هذا بعد سفرى. سامحينى ياحسناء طنجة. لم أتوقع أن تكون هذه نهاية العلاقة. طريق كل منا مختلف . الزمان كله اختلف.

- قضيت ليلة حزينة . الأرق . القلق. يسيطران على مخيلتى . أحاول النوم حتى مطلع الفجر. صورة نانا باكية . ماثلة أمام عينى. الدموع لا تغير مسيرة الحياة. أنا هو أنا . لا أدرى.. لم كانت النهاية حزينة مع نادرة، بينما مرت سعيدة مع رانية وبيلار ..؟!

٢٤- يا زمان الوصل بالأندلس

الاثنين ٢٩ أبريل . أصرت نبيهة أن يكون وداعها . آخر يوم . حسنا فعلت. تكون خاتمة المطاف . أظن .. هذا ما تقصد . النساء أحوالهن عجيبة. الأعجب أن يجدن من الرجال من يستجيب لرغباتهن .!

قابلتها في فندق مونكلوا. تقابلنا فيه أول مرة. الجمال قدها . الجلال سحرها. امرأة مكتملة الأنوثة . وجهها قمر شهر الصيام. لو تأملته . رأيت نفسك فى مرآة صافية. قرب الأذن اليمنى خال مثل الحجر الأسود. يعطى الوجه مهابة وقدسية. العينان نهران من اللؤلؤ. يسبح فيهما زورقان يتهاديان. شعرها أسود فاحم . ثوبها أزرق غامق . تذكرك بملكات الفراعنة على جدران المعابد . دلالها يغريك ، وكبرياؤها يمنعك . هذا الجمال القدسى لم يتجل لأحد سواى. لم يعرف سحره غيرى . تلك .. إحدى فتوحات الحب الصادق . ترى ما لا يراه المبصرون. الأمل فيها أمل العجوز فى أيام الصبا . تلك هى الملهمة . وهذه هى الصورة. أعشقها . أتمنى أن أخلد صورتها فى لوحة . ثمة علاقة قوية بين المرأة / الإلهام .. والفن / الإبداع .

قبلتها مرحبا . قالت مبتسمة : نحن فى مدريد . لكننا مصريون.

- متى أراك فى مصر؟
- فىالصيف . أجابت ، وهى تبتسم فى هدوء ملائكى .
- على وجه التحديد ؟

- لست أدرى . سوف أتصل فور وصولى . بشرط..
- ما هو ؟ بحلقت .. كأنما أراها لأول مرة .
- تكون قد انتهيت من كتابة الرواية .
- ليتنى قابلتك فى البداية . سقطت من الذاكرة أشياء كثيرة.
- مابقى يكفى .

هذه المرأة تدعونى إلى فعل الكتابة ، التى لم أمارسها من قبل . لا أدرى .. ما السبب ؟! سواء أكان السبب ما أظن أنـــا .. أو مـــا تظن هى. لا يقدر المريد على عصيان القطب .

قدمت علبة مغلفة بورق جميل : أرجو أن تقبـــل هـــذه الهديـــة المتواضعة .

- شكرا . ما هى ؟
- لا تراها إلا فى مصر .
- الإسبان .. يرون الهدية حين يأخذونها .
- قلت رأيى . أنت صاحب القرار الأخير .
- أمرك يا فاتنتى .
- أحب اسمى . أحب أكثر أن تنادينى به .
- نبيهة .. أين كنت غائبة عنى ؟!
- المهم أننا تقابلنا .
- لا يزال رأيك فى لوحاتى كما هو .
- لم أظن أن ملاحظتى العابرة ، تكلفك كل هذه الرحلة .
- كنت فى أمس الحاجة إليها .
- حتى ترى نساء إسبانيا .. يا صائد الغزلان.

- بل ، كى أراك أنت يانبيهة .

المرأة هى المرأة . حبيبة . صديقة. عشيقة . تريد أن تستأثر وحدها بمن تعرف من الرجال . الحب . رغبة فى الامتلاك . عاطفة نبيلة. شغلت البشر منذ آدم وحواء إلى اليوم.

- نتغدى اليوم معا .. يا نبيهة .

- قبلت دعوتك فى المرة الماضية . تقبل دعوتى اليوم.

- أن نكون معا . هذا أهم ما فى الموضوع .

العامل يقدم أطباق الطعام . أختلس النظر إليها . ملاكى الطاهر.. أين كنت بعيدة عنى؟ لقاؤك أعاد إلى الروح. أعطى الأمل. منح القدرة . أيقظ الرغبة. أنت الإلهام والملهمة . العبادة والمعبودة . منك الطلعة البهية . ومنى صلة العابد بالمعبود. أنت المنى والأمل . ياحلوة الفم ، ساحرة المقل.

- أين سرحت يا كارم ؟

- سرحت فيك ، لأعود إليك . أشتاق لك وأنت أمامى . فماذا أفعل إذا بعدت؟

- أعطيك صورة . تساعدك على الرسم .

فتحت الحقيبة . الصورة فى مظروف جميل . قبلت يدها.

- أشكرك على هذه الهدية الغالية . وإن كنت سأستوحى الصورة من خيالى .

ابتسمت . رأيت ليلة القدر فى نهار مدريد . تلك هى الزوجة التى أحلم بمثلها يا أمى. قضاها القدر لغيرى. واختصنى بحبها . عشق الروح هو العشق الخالد. بين أمى .. ونبيهة. لا أجد امرأة

تستحق الزواج . الذين يطمحون إلى الخلود لا يتزوجون .

أتمنى أن أعرف أية حقيقة عنها. ليست زوجة سعيدة .. فيما يبدو. الزوج العسكرى لا يعرف سحر الزهور . ما فائدة الورد لأنوف لا تشم ؟! تذكرت قول بيلار. تمتع باللحظة ، وانس ماعداها..!!

سريعة تمر اللحظات الجميلة يانبيهة . عانقتها عند باب الفندق.

– أراك قريبا فى مصر.. أنتظرك من الآن . أرجوك لا تتأخرى.

– اطمئن سآتى ، لأقرأ الرواية، وأرى اللوحة .

– فقط يا حبيبتى .

– لا تسأل عن شىء ، تعرف إجابته يا صديقى . إلى اللقاء.

إلى اللقاء .. يا عبير الشوق وأريج الحب. أحمل هديتها – كما يحمل أهل السنة المصحف الشريف. أتوجه ناحية البيت.. سيرا على الأقدام . نهاية سعيدة لرحلة جميلة . تذكرت **موشحة ابن الخطيب** :

جادك الغيث إذا الغيث هما
يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما
فى الكرى أو خلسة المختلس

اليوم. حدث ما لو اطلعت على الغيب، ما اخترت غيره. استقرت النفس الحائرة، فى ظل الأميرة الهادئة. نبيهة يا من تعيشين

فى مغرب الأرض، وأنا فى مشرقها.. أفديك من روحى بعينى.
دعانا حسام أنا وطارق لجولة فى شوارع مدريد. وتناول العشاء . قبل أن أذهب على أن أعد الحقيبة . أرتب الأشياء المبعثرة. أمسكت هدية نبيهة . "لاتفتحها إلا فى مصر". هذه المرأة فيها شيء غامض . أفك سر حلقة. أجد أخرى مغلقة. الغموض سر من أسرار الفن الجميل. الرمز يعطى المرموز قيمة تعبيرية أكثر مما هى عليه فى الواقع . جلال أمور كثيرة فى الحياة . رهن بما تحمل من غموض. الغموض سحر كامن .. فى كل شيء خالد . ياريح .. بلغيها السلام ، وقولى: يا غائبا لا تغيب، أنت البعيد القريب..!!
أنا وحسام مع طارق فى سيارته . قرب نهر مانثاناريس (Manzanres) . السيارة تجوب شوارع مدريد . أجمع اصداء ذكريات قريبة بعيدة . تتداعى . تتداخل . متاحف . لوحات. تماثيل. مناطق أثرية . وادى الحجارة. طليطلة. غرناطة. طارق . كارمن. حسام. إيفا. بيلار. رانية. نادرة. نبيهة. شخصيات عزيزة . ذكريات جميلة. رحلة سعيدة. أتمنى.. أتمنى أن أعود مرة أخرى .. بل مرات كثيرة.
فى المطعم سألنى طارق : ما رأيك .. وأنت على وشك الرحيل؟
- الرحلة .. ضرورة من أجل الحياة والفن. كنت أخسر كثيرا لو لم تتحقق .
قال حسام : نرجو أن تتكرر.

– صداقتــكما الطيبة، تغريني بهذا .

قال حسام : أودعك الليلة. عندى محاضرات فى الجامعة غدا .

– شكرا على كل ما عملته من أجلى .

– نحن إخوة . يكفى أننا تعرفنا على فنان كبير مثلك.

أضاف طارق : يكفى هذا . المسافر يحب أن يستريح مبكرا .

انتهت سهرة آخر ليلة بامدريد . عدت إلــى البيــت وحــدى . أحاول النوم. والنوم لايأتى.

الثلاثاء ٣٠ إبريل . فى المطار.. المودعون . هم المستقبلون . طارق وبيلار. تتحاشى أن تلتقى عيناها مع عينى . الفراق بعــض الموت . هذه هى الحياة .. ياصديقتى .

عند نزول الحقائب . وجدت حقيبة أخرى .

– ما هذه يا طارق؟

– فى الحقيقة . لا أدرى ما بها . كارمن أرسلتها إلى الوالدة. سلم عليها كثيرا . فى المساء أكلمك، لأطمئن عليك وعليها.

– كيف أشكرك يا أخى ؟

– الأخ لا يشكر أخاه.

تعانقنا عناقا حارا . خفق قلبى وأنا أضع يد طارق بين يــدى . عانقته بحرارة فترة طويلة. لا أدرك مداها: أراك بخير يا طــارق.. إلى اللقاء .

حاولت أن أحتضن بيلار بتحفظ. لم أقدر . سقطت بعض دموع منى ومنها.

– شكرا يا بيلار. أنتظرك في القاهرة.

- أفضل أن ننتظرك هنا .

- إلى اللقاء يا طارق .. إلى اللقاء بيلار .. إلى اللقاء..

بجوار شباك الطائرة جلست . عند العصر أتيت . وعند العصر أعود . قلبى يخفق مع صوت الطائرة . تعلو فى الأفق . أنظر إلى المدينة القريبة البعيدة . لا أدرى كيف مضى زمان الوصل بالأندلس. نزلت من العينين دمعة. خرجت من الصدر زفرة .

مدريد يا همزة الوصل
بين الشرق والغرب
الشرق شرق
والغرب غرب
أتمنى أن يلتقيا
فى ظل المحبة والسلام
من أجل غد مشرق
للإنسان فى كل مكان
رغم أنف العولمة
مدريد ..
يا حبيبة قديمة جديدة
سأعود ..
سأعود إليك . (*)

(*) كتبت أحداث هذه الرواية فى مدريد - إسبانيا .
خلال الفترة من فبراير إلى إبريل 2002 .

أعمال أدبية أخرى للمؤلف

أولا : الرواية :

١ ـــ الأفق البعيد (١٩٨٤) مترجمة إلى الإنجليزية

٢ ـــ الممكن والمستحيل (١٩٨٧)

٣ ـــ الكهف السحرى (١٩٩٤)

٤ ـــ عصر الليمون (١٩٩٨)

ثانيا : القصة القصيرة :

١ ـــ عمار يا مصر (١٩٨٠)

٢ ـــ الدموع لا تمسح الأحزان (١٩٨٢)

٣ ـــ حكاية الليل والطريق (١٩٨٥)

٤ ـــ دائرة اللهب (١٩٩٠)

٥ ـــ العشق والعطش (١٩٩٣) مترجمة إلى الإنجليزية

٦ ـــ صرخة فى غرفة زرقاء (١٩٩٦)

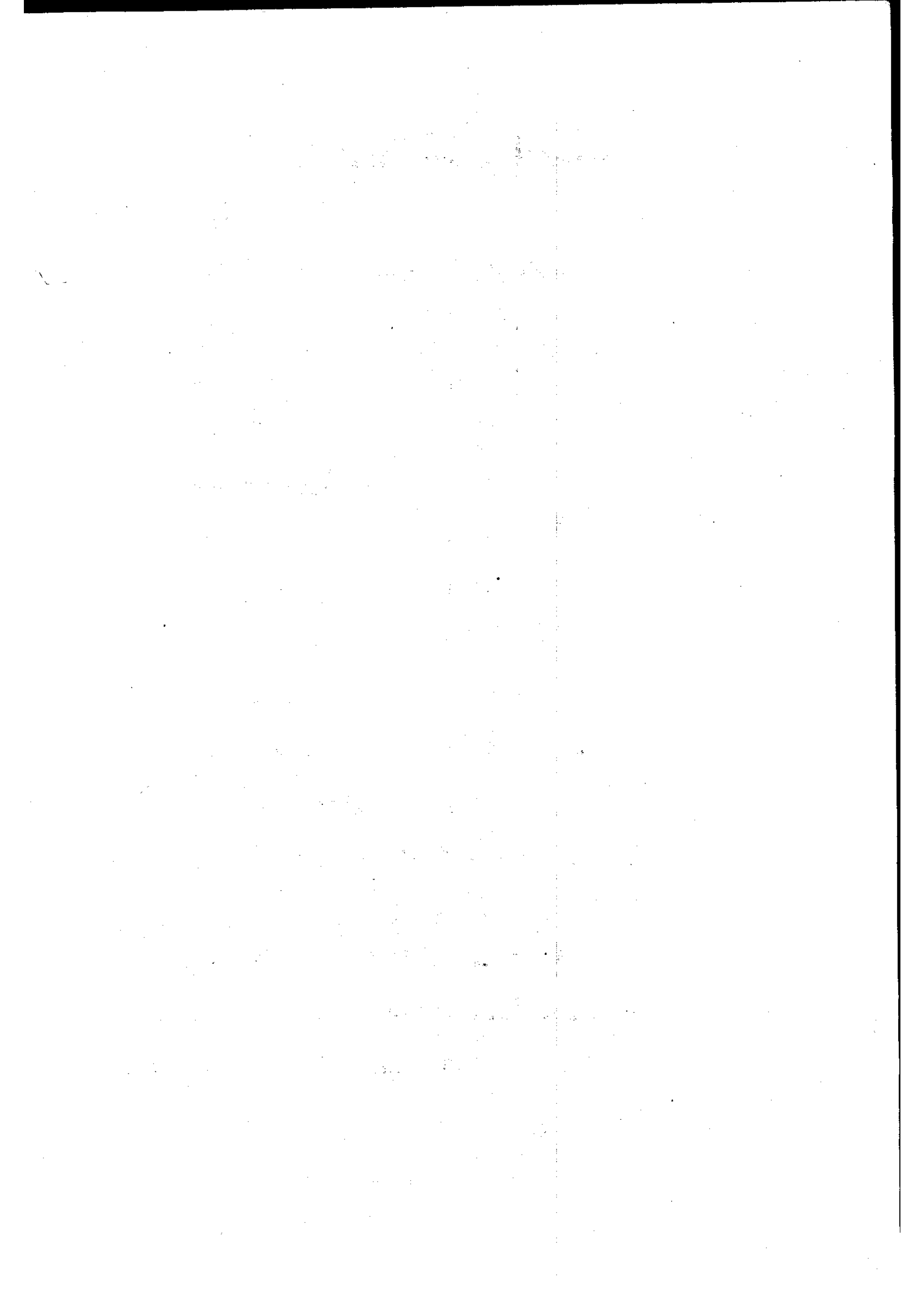
٧ ـــ رسالة إلى معالى الوزير (١٩٩٩) مترجمة إلى الإنجليزية والإسبانية

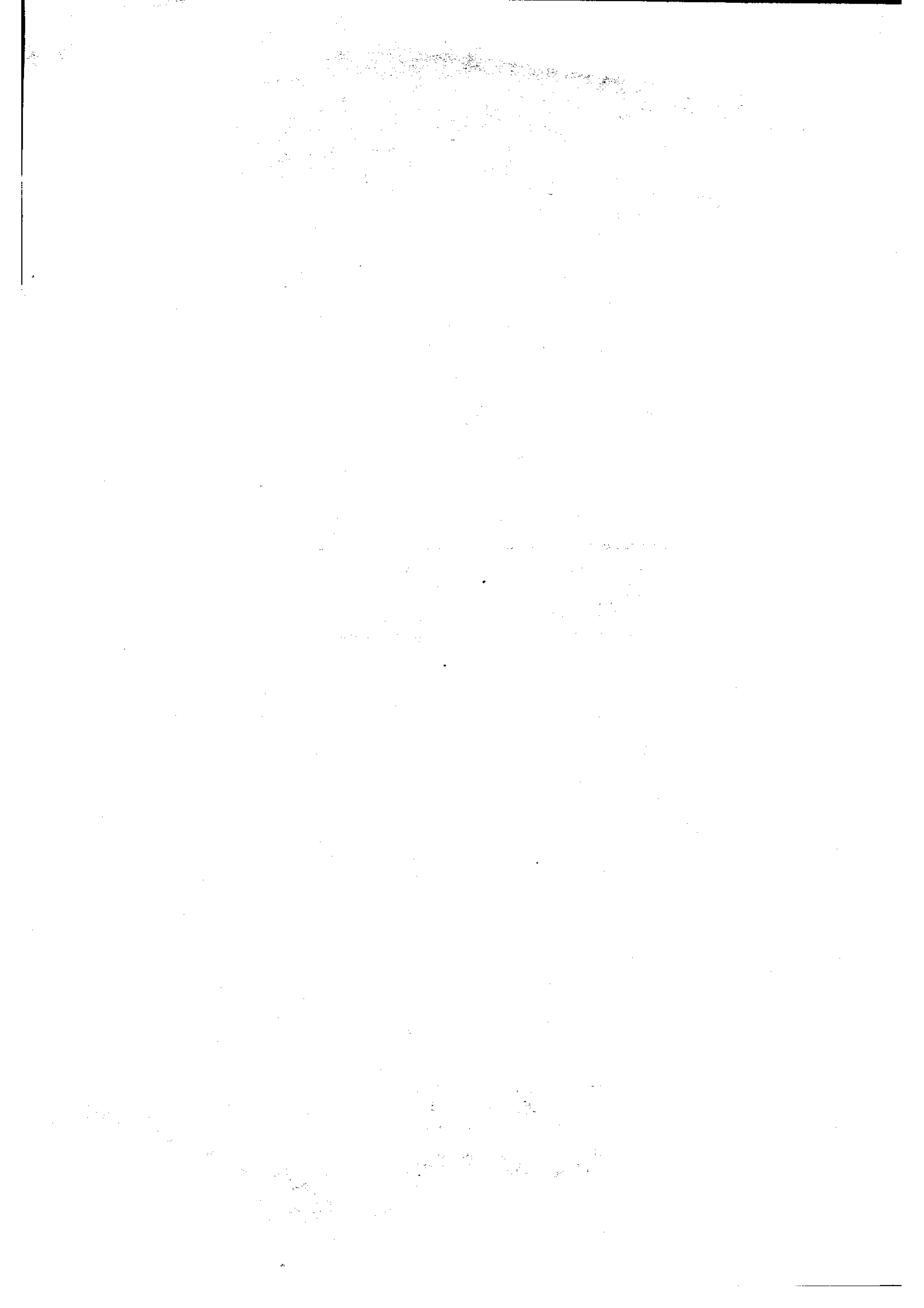
ثالثا :

ـ الليالى (جـ١) (١٩٨٩) سيرة ذاتية

ـ فى البدء تكون الأحلام (١٩٩٥) خواطر ومقالات أدبية

ـ أولو العزم من الرسل (٢ جـ) ١٩٩٦ دراسة دينية





رقم الإيداع : ١٤١٣٥ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى : 8 - 1463 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه